التراث

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام - دار الجاحظ - الجمهورية العراقية
المجلد الثامن - العدد الثالث - 1399 - 1979

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين شيركوه

رحلة ابن معصوم المدني

أو

سلوة الغريب وأسوة الأديب

تحقيق

شاكر هادي شكر

بغداد ـ الجمهورية العراقية

القسم الثاني

وأخبرني بعض الأصحاب انّه وقف على رسالة لبعض فضلاء اليمن في الكلام على تحليلها وخواصها ومنافعها(٢٨٨) .

قلت : وهي على مقتضى ما ذهب اليه جماعة من الامامية ، ومعتزلة بغداد حرام ، لانهم ذهبوا الى تحريم الاشياء التي ليست باضطرارية قبل ورود الشرع ، وجنح الى هذا القول الشيخ أبو علي بن أبي هريرة من فقهاء الشافعية ، وذهب معتزلة البصرة وباقي الامامية الى الاباحة ، وتوقف الأشعري ، واختلف في معنى توقفه . والحق الاباحة ، والمسألة أصولية يطلب تحقيقها من مظانّها . وبالجملة فلم يتوقف أحد في استعمال هذه القهوة ، لا معتزلي ولا أشعري ولا غيرهما والأشاعرة أرغب فيها من غيرهم ، وقد تلقتها الأمة بالقبول .

والأطباء مختلفون فيها . فمنهم من مدحها وعدّد منافعها ، ومنهم من ذمّها حتى انّي رأيت بعض أطباء العجم ينهى عن استعمالها ، وينفّر عنها غاية التنفير . وقد ذكر الشيخ داود(٢٨٩) في التذكرة خواصها فقال : البن ثمر شجر باليمن يغرس حبّه في آذار ، وينمو ويقطف في آب ، ويطول نحو ثلاثة أذرع على ساق في غلظ الابهام ، ويزهر زهراً أبيض يخلف حباً كالبندق ، وربّما تفرطح(٢٩٠) كالباقلاء ، واذا قشّر انقسم نصفين ، وأجوده الرزين الأصفر ، وأردؤه الأسود ، وهو حارّ في الأولى ، يابس في الثانية . وقد شاع برده وليس كذلك ، لأنّه مرّ وكلّ مرّ حار ، ويمكن أن يكون القشر حاراً ونفس البن امّا معتدل أو بارد في الأولى ، والذي يعضد برده

(٢٨٨) في مباحث عراقية ٢/١٨٠ بحث طريف مفيد عن القهوة ومكتشفها وانتشارها وطريقة استعمالها.
(٢٨٩) هو داود الانطاكي الطبيب الاديب المكفوف ، توفي سنة ١٠٠٨هـ (معجم المؤلفين ٤/١٤٠) .
(٢٩٠) المفرطح : العريض .

WWW.ATTAWEEL.COM

عُفُوصَته • وبالجملة فقد جرّب لتخفيف الرطوبات والسعال البلغمي ، وفتح السدد ، وادرار البول • وقد شاع الآن اسمه بالقهوة اذا حمّص وطبخ بالماء • وهو يسكّن غليان الدم ، وينفع من الجذري والحصبة والشرى الدموي ،ولكنّه يجلب الصداع الدوريّ ، ويهزل جداً ، ويورث السهر ، ويولد البواسير ، ويقطع شهوة الباه ، وربّما أفضى الى الماليخوليا ، فمن أراد شربه للنشاط ودفع الكسل فليكثر معه من أكل الحلو ،ودهن الفستق والسمن • وقوم يشربونه باللّبن وهو خطأ يخشى منه البرص • انتهى •

وما ألطف قول الصلاح[٢٩١] القرشي في الشيخ أحمد بن عواد[٢٩٢] :

انّ ابنَ عوّادٍ لـه قَهوةً بحُسنِها كلُّ الورَى يَشهدُ
يَحتارُ مَن ينظرُ في لَونِها ووَجهِهِ أيُّهما أسْوَدُ

ومثله قول البدر البشتكي[٢٩٣] في التقي ابن حجة الحموي[٢٩٤] وكان يصبغ ذقنه بالحنّاء :

صَقيعٌ دَعاوِيه لا تَنتَهي ويُخطي الصَّوابَ ولا يَشعُرُ
تفكّرتُ فيه وفي ذَقنِهِ فلم أدْرِ أيُّهما أحْمَرُ

وقد أكثر الشعراء من النظم في هذه القهوة ،فمن ذلك للفاكهي[٢٩٥] :

اشرَب القَهوةَ صِرْفاً تَجِد الصَّفوَ مِزاجا
واذكُرِ اللهَ عَليها تَشهَد الأنسَ سِراجا

وقلت أنا من أول نظمي فيها[٢٩٦] :

يا قهوةً قِشْرِيّةً حكَتِ القُضارَ بلَونِها
ولكَمْ حَباكَ حَبابُها بخَلاصِها ولَجَيْنِها
جُلِيَتْ عليَّ مَصُونةً بزُقافِها وبصَوْنِها
وكأنّ كلَّ حَبابَةٍ تَرنُو اليَّ بعَيْنِها

---

(٢٩١) في ك (ابن الصلاح ؛ وفي أ (ابي الصلاح) .
(٢٩٢) ترجم الخفاجي لابن عواد في ريحانة الالباء٢/١٠٧ ترجمة مختصرة ولم يذكر تاريخ وفاته .
(٢٩٣) هو ابو البقاء محمد بن ابراهيم المعروف بالبدر البشتكي . توفي سنة ٨٣٠هـ (انوار الربيع ١/١٢٨) .
(٢٩٤) هو ابو بكر بن علي المعروف بتقي الدين ابن حجة الحموي . توفي سنة ٨٣٧هـ ؛ وقيل ٨٢٨ (انوار الربيع ١/١٢٢) .
(٢٩٥) لعله محمد بن احمد بن علي الفاكهي الناظم الناثر اللغوي المتوفى سنة ٩٢٢هـ (معجم المؤلفين ٨/٢٩٨) .
(٢٩٦) في ع (وقال آخر وابدع في الجناس) وهو وهم من الناسخ . يلاحظ العنوان الذي بعده .

وقال آخر وأبدع في الجناس :

هـاتِ اسـقِني قهـوةً فَضَحَتْ بِكرَ المُدامِ وشَـنِّفْ لي الفَناجِينا
تَدعُو الى نَحو ما فيـه البَقـاءُ ولو دَعَت الى نحو ما فِيـه الفَناجِينـا
لو أنَّ ألفـاً أحاطُوا حـولَ سـاحتِها قَصْدَ النَّجـاةِ رأيتَ الألفَ ناجِينا

وزاد عليها زين‌العابدين الطبري[٢٩٧] فقال :

يارِبَّةَ الحُسنِ حَلِّيْنا حِمـاكِ فانْ نَطلُبْ فجُودي وانْ نَسْأل فَناجِينا

وأنشد الشيخ البهائي[٢٩٨] في الكشكول لبعضهم :

يَقولونَ لي قهـوةُ البُـنِّ هـلْ تُبـاحُ وتُـؤمَنُ آفاتُهـا
فقلتُ نعـم هِـي مأمـونَـةٌ وما الصَّـعبُ الاَّ مُصافاتُهـا

وقال آخر ، وعزاه بعضهم الى الشريف حسن بن أبي نمي والي مكة[٢٩٩] :

شَـربنا قهـوةً من قِشـرِ بُنٍّ تُعـينُ على العِبـادةِ للعِبـادِ
حكَتْ في كفِّ من أهـواهُ صِرْفـاً زُبـاداً ذائِبـاً وسـطَ الزُّبادِ[٣٠٠]
وعـادات الظِّبـا تـأتي بمسـكٍ وهذا الظبي يـأتي بالزُّبـادِ[٣٠١]

وفي تذكرة العلامة جمال‌الدين بن صدرالدين بن عصام‌الدين[٣٠٢] قال :

حدثني صديقي وتربي امام المحراب النبوي الشيخ ابراهيم بن الشيخ يحيى بن الشيخ ابراهيم ابن الشيخ أحمد بن الشيخ ابراهيم بن الشيخ الأجل جلال‌الدين الحميدي الامام العلامة ، قال : قرأت على باب قهوة بالشام هذين البيتين على لسان القهوة[٣٠٣] :

---

(٢٩٧) هو زين‌العابدين بن عبدالقادر الطبري امام المقام الابراهيمي بمكة . توفي سنة ١٠٧٨هـ (سلافة العصر / ٥٠ ، وخلاصة الاثر ٢/١٩٥) .

(٢٩٨) هو بهاءالدين محمد بن الحسين الحارثي المتوفى سنة ١٠٣١هـ (انوار الربيع ٤/١٢٩) .

(٢٩٩) هو الشريف حسن بن محمد بن بركات بن محمد بن ابي نمي . توفي سنة ١٠١٠هـ (الاعلام ٢/٢٣٥) .

(٣٠٠) الزباد (بالضم وتشديد الباء ، وبجوزتسهيلها عند الضرورة الشعرية) : لغة في الزبد ، وهو خلاصة اللبن ، ونبت سهلي له ورق عريض يأكله الناس وهو طيب .

(٣٠١) الزباد (بالفتح) : نوع من الطيوب يستخرج من حيوان كالهر يسمّى (سنّور الزباد) .

(٣٠٢) هو جمال‌الدين بن صدرالدين اسماعيل العصامي . ترجم له شهاب‌الدين الخفاجي في ريحانة الالباء ١/٤١٧ ولم يذكر تاريخ وفاته .

(٣٠٣) البيتان في ريحانة الالباء ١/٤١٩ ، وانوارالربيع ٥/٩٦ ؛ و ١١١ منسوبان لمحمد البكري ، او لمحمد ماماي (اومامي) الرومي .

أنا المشوقة السمرا واجلى في الفناجين
وعود الهند عطرني وذكري شاع في الصين

نكتة لطيفة : قال السيد الأديب محمد كبريت المدني(*) في رحلته : يحكى أنّ بعض الصالحين قال لمسيح باشا وقد أمر بابطال القهوة : لا تبطل أصلاً ، قال : ولم ؟ قال : لأن حسابها موافق لاسم الله تعالى (القوي) يعني أن كلاً منهما له من العدد مائة وستة عشر ، فلها منه الاستمداد ، فأمرها وشأنها قوي ، وكان كذلك . انتهى .

وقال أيضاً : لفظ (جبا) لا أعرف له أصلاً ، الاّ انه يستعمل بمعنى الهبة(٣٠٤) ، فكأنه يقول : خذها هبة لك مني .

قال : واستخرج بعضهم لطيفة من ذلك وهي ان لفظ (جبا) عدد ستة ، فكأنّ القائل يقول : جلبت لك الصفاء من الست الجهات وحياته هبة مني لك فاقبله . انتهى .

قلت : لم اسمع في عمري بأسمج من هذه اللطيفة ، ولا يخفى غموض هذا الاستنباط ، والذي يلغني في هذا المعنى : ان الشيخ الشاذلي كان له غلام يهيء له القهوة في كلّ يوم ، وكان اسم الغلام (جبا) فاذا أتى بالقهوة الى الشيخ قرع عليه باب الخلوة ، فيقول الشيخ : من هذا ، فيقول : جبا ، فبقي ذلك سنة اذا جيء بالقهوة قيل : جبا ، وهذا ألطف ما سمعت به في هذا المعنى والله أعلم .

المفتي ابو السعود(٣٠٥) :

أقولُ لأصحابي عن القهوة انتَهوا ولا تَجلسُوا في مجلسٍ هيَ فيه
وما ذاكَ عن بُغضٍ ولا عن كراهةٍ ولكن غَدَتْ مشروبَ كلّ سَفيهِ

غريبة : وفي أيام اقامتنا بالمخا انقضّ كوكب عظيم هائل من جهة الجنوب الى الشمال بعد المغرب فأضاءت له الدنيا وهو كشعلة النار ، وترك وراءه ضياءً مستطيلاً جداً ، وفي مثله يقول الأديب أبو محمد بن سارة من شعراء المغرب(٣٠٦) .

---

(٣٠٤) كانت كلمة (جبا) مستعملة في العراق الى ما بعد سنة ١٩٢٥م وذلك عندما يقدم صاحب المقهى الشاي ، او القهوة المرة الى أحد الزبائن يكرّر عارفوه من الجالسين كلمة (وير) وهي تركية ، فيجيب القهواتي بكلمة (جبا من ابي فلان) ـ ويعيّن اسم احدهم ـ وعندها يكون الرجل المعين ملزماً بدفع الثمن .

(٣٠٥) هو ابو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، من علماء الترك المتأخرين وله شعر مقبول . توفي سنة ٩٨٢هـ (الاعلام ٧/٢٨٨) .

(٣٠٦) هو ابو محمد عبدالله بن محمد بن سارة (ويقال ايضاً : صارة) الكرى . توفي سنة ٥١٧هـ (انوار الربيع ٥/١٨٢) .

وكوكبٍ أبصرَ العفريتَ مستترقاً للسمعِ فانقضَّ يذكي اثرهُ لهبَه[٣٠٧]
كفارسٍ حلَّ اعصارٌ عمامتَه فجرَّها كلَّها من خلفِه عذَبَه

فائدة : وهذا الكوكب هو الشهاب الذي أشار اليه تعالى بقوله « الاَّ من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب »[٣٠٨] . قال الشيخ البهائي(*) في المفتاح[٣٠٩] : والشهاب ما يرى كانه كوكب انقضّ ، وما خمّنه الطبيعيون من انه بخار فيه دهنيّة يصعد الى كرة النار فيشتعل لم يثبت . ولو صحّ لم ينافِ ما دلّت عليه الآية الكريمة ، ولا مادل عليه قوله جلّ شأنه « انا زيّنا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين »[٣١٠] . فان المصباح والشهاب يطلقان على المشتعل ، وكلّ مشتعل في الجوّ زينة للسماء ، ولا استبعاد في اصعاد الله سبحانه ذلك البخار الدهني عند استراق الشيطان السمع ، فيشتعل ناراً فتحرقه ، وليس خلق الشيطان من محض النار الصرفة ، كما أن خلق الانسان ليس من محض التراب ، فاحتراقه بالنار التي هي أقوى من ناريته . ولعل الشياطين لا يسمعون كلام الملائكة الاَّ اذا انتهوا في الصعود الى قرب كرة الأثير ، فاذا استرق الشيطان السمع وبادر الى النزول لحقه الشهاب فأحرقه ، لذلك عبّر سبحانه عن انتهاء الشهاب اليه باتباعه له . انتهى .

وحكى السيوطي[٣١١] في المحاضرة[٣١٢] : ان في سنة ثلاث عشرة وثلثمائة في آخر المحرم انقضّ كوكب من ناحية الجنوب الى الشمال قبل مغيب الشمس ، فأضاءت الدنيا منه وسمع له صوت كصوت الرعد .

وفي بغية المستفيد[٣١٣] ان في ليلة الاثنين الخامس من شهر جمادى الاولى سنة ست عشرة وتسعمائة انقضّ كوكب عظيم قريباً من نصف الليل آخذاً في الشام وأضاءت الدنيا لذلك اضاءة عظيمة ، حتى لو أنّ الانسان حاول رؤية الذرّ بذلك الضوء لم يمتنع عليه ، ثم غاب في الجهة الشامية ، وبقي أثره في السماء ساعة[٣١٤] طويلة .

---

(٣٠٧) في نفح الطيب ٢/٦٥٢ (يدني خلفه لهبه) .
(٣٠٨) سورة الصافات /١٠ .
(٣٠٩) هو مفتاح الفلاح للبهائي مطبوع عدة طبعات. قال الامين في اعيان الشيعة ٤٤/٢٤٢ : لنا على الطبعة المصرية بعض الحواشي .
(٣١٠) سورة الملك /٥ .
(٣١١) هو جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ (معجم المؤلفين ٥/١٢٨) .
(٣١٢) الاسم الكامل للكتاب (حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة) مطبوع .
(٣١٣) هو بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد ، لابن الديبع الشيباني (عبدالرحمن بن علي) تقدم التعريف به .
(٣١٤) كذا ورد في الاصول ، ولعلها (ساعات) او انه اراد بها : الوقت والحين غير المحدود .

وفيها في حوادث سنة أربعين ومائة تناثرت النجوم كالمطر نحو المغرب من أوّل الليل الى الصبح ، وعوفي في تلك الليلة كثير من المجانين فأصبحوا لا بأس بهم .

فائدة : قرأت بخطّ بعض الفضلاء ما نصّه :أخبرني بعض الثقات عن بعض الأعراب أنّه قال : اذا انقضّ بعض الكواكب ونظر اليه الشخص حال انقضاضه واضعاً في فيه بعض أصابعه ـ اصبعاً فما فوقه ـ قائلا عند وضع الأصابع أو الاصبع :اللّهم صل على محمد وآل محمد ، يكرر الصلاة ثلاثاً أو أكثر ، ويعقبها بالتكبير ثلاثاً أو أكثر أمِنَ من وجع العين سنة ان كان وضع اصبعاً واحداً ، وسنتين ان كان وضع اصبعين وهكذا . وأخبرني انه واظب على ذلك نحو عشرين سنة فسلم من وجع العين . انتهى .

قلت : وقد جرّبت انا ذلك فوجدته صحيحاً .

ومن الحوادث السماوية الغريبة ما حكاه اليافعي في حوادث احدى وستين ومائة : انه رأى الناس قمراً ثانياً في السماء ، وكان يُرى ذلك في مسيرة شهرين ، فسبحان الفعال لما يشاء .

وأغرب من ذلك ما حكاه في البغية : انّ في خامس شعبان سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ظهر عمود من نور في ناحية المشرق كان يرى كالمنارة الكبيرة . ووقف مكانه لا حركة له الى يوم العشرين من شهر رمضان سنة اربع وثمانين ، ولم يزل ينحلّ قليلاً قليلاً حتى غاب ، وكان من تأثيره ـ بقدرة الله تعالى ـ حصول موت عظيم في البلاد المرتفعة عن تعز ، كجُحاف ، ووَصاب ، وصهيب[٣١٥] وما والاها من المشرق حتى كان يمرّ المار بالقرية فيجد الأنعام سائمة والآدميين موتى في منازلهم لا يتولّى دفنهم أحد البتّة ، فسبحان من هذا صنعه .

رجع : وبعد انقضاء الموسم بالمخا وذهاب جميع السفن عنها خليت عمّن رأيناه بها من الأكابر ، فلم يبق فيها سوى رعاع أهلها من السوقة وغيرهم ،حتى ان واليها السيد المقدّم ذكره لم يقم بها ، بل فارقها وأناب منابه غيره ، فوجدنا لذلك من الوحشة والغربة ما ضاعف علينا الكربة ، مع سوء عشرة الاتباع الذين كانوا في صحبتنا ، وعدم الألفة والأنس بهم . وقد كتبت الى الوالد بهذين البيتين مشيراً الى سوء أخلاقهم وهما لابن بسام[٣١٦] :

لقد صبرتَ على المكروهِ أسمعُهُ ... من مَعشرٍ فيكَ لولا أنتَ ما نطقُوا

وفيكَ داريتُ قوماً لا خلاقَ لهم ... لولاكَ ما كنتُ أدري أنّهم خُلِقوا

---

(٣١٥) (صهيب) كذا ورد في الاصول ولم أجد لهاذكراً فيما تيسر لي من كتب البلدان . وجاء في معجم ياقوت (صِهبد) : مفازة بين اليمن وحضرموت ، وفيه ايضا وفي معجم ما استعجم (صَيْهد) : أرض باليمن منحرفة مابين بيحان فمأرب فالجوف ... ، وجاء في الاكليل ١/١٢١ : انها بلدة وافاض المحقق في وصفها ووصف بيحان ومأرب والجوف .

(٣١٦) هو علي بن محمد بن بسام البغدادي المتوفى سنة ٣٠٢ هـ (انوار الربيع ٢/٢٧٢) .

فبلغني أنه أعجب باستشهادي بهما . وقدرة القائل[٣١٧] :

وما غربةُ الانسانِ في شقّةِ النّوى ولكنّها والله في عَدَمِ الشكلِ[٣١٨]
وانّي غريبٌ بين بُسْتَ وأهلِها وان كان فيها أُسرَتي وبها أهلي

وقد مسخ هذين البيتين السيد الحسن بن شدقم الحسيني فقال[٣١٩] :

وليس غريباً من نأى عن ديارِه اذا كانَ ذا مالٍ ويُنْسَبُ للفَضلِ
وانّي غريبٌ بين سُكّانِ طَيبةٍ وان كنتُ ذا مالٍ وعلمٍ وفي أهلي
وليس ذهابُ الرّوح يوماً منيّةً ولكن ذهابُ الرّوح في عَدَمِ الشكلِ

وكنت اعاشرهم معاشرة مداراة لا مماراة ،ومحاسنة لا مخاشنة ، والحال معهم كما قال أبو الفتح البستي(*) :

يقولونَ لي عاشَرتَنا ووصَلْتَنا وهيهات أينَ القومُ منّي ومن جنسي
وكيفَ وصالي فِرقةٌ فَرقٌ بَينَهم وبَيْني كفَرْقِ الجنّ من فِرَقِ الانسِ

ومن كلام أمير المؤمنين علي (ع) : من سالم الناس سلم منهم ، ومن حارب الناس وحاربوه فان العزّة للكاثر .

وكان يقال : العاقل خادم الأحمق ابداً ، انكان فوقه لم يجد من مداراته والتقرب اليه بُدّاً ، وان كان دونه لم يجد من احتماله واستكشاف سرّه بدّاً .

ومن كلام محمد ابن الحنفية ـ رض ـ[٣٢٠] قد يدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .

وقال الحسن : حسن السؤال نصف العلم ،ومداراة الناس نصف العقل ، والقصد في المعيشة نصف المؤنة . وقال الشاعر وهو لسان الحال :

وأنزَلَني طولُ النّوى دارَ غُربةٍ متى شئتُ لاقيتُ امرأً لا أُشاكلُه[٣٢١]
أُحامقُه حتى يُقالَ سَجيّةٌ ولو كانَ ذا عَقلٍ لكنتُ أُعاقِلُه

وكانت تهب بالبندر المذكور ريح عاصف لا تسكن ليلاً ولانهاراً ، حتى انّه لا يمكن

---

(٣١٧) الشعر لابي سليمان الخطابي (حمد بن محمد) المتوفى سنة ٣٨٨هـ (معجم المؤلفين ٤/٧٤)
(٣١٨) في يتيمة الدهر ٤/٣٢٥ (وما غمة الانسان) .
(٣١٩) السيد حسن بن شدقم الحسيني المدني ،هاجر الى الهند ولقي حظوة عند احد ملوكها وبها توفي سنة ١٠٤٦ هـ (نفحة الريحانة ٤/٣٢٧) .
(٣٢٠) هو محمد بن امير المؤمنين علي (ع) . توفي سنة ٨١هـ وقيل غير ذلك (الاعلام ٧/١٥٢) .
(٣٢١) البيتان في عيون الاخبار ٣/٢٤ بدون عزوايضا وفي روايتهما اختلاف بسيط .

الخروج معها من البيوت الاّ اضطراراً ، ويسميهاأهل اليمن (الأزيب)[٣٢٢] ـ كاحمر ـ وهي الجنوب المقابلة للشمال ، وتسمى النعامى ، وماأحسن قول ابن القيسراني[٣٢٣] :

بالسَّفحِ من نَعْمان لي قمرٌ مَنازلُهُ القلوبُ[٣٢٤]
حملت تحيَّتَه الشما لُ فردَّها عنّي الجَنُوبُ
فَرْدُ الصِّفاتِ غَريبُها والحسنُ في الدُّنيا غَريبُ
لم أنسَ ليلةَ قالَ لي لمّا رأى جَسَدي يذُوبُ
بالله قُل لي من أعلَّك يا فَتى قلتُ الطَّبيبُ

فائدة : الرياح المعروفة أربعة : الصَّباوالدَّبور والشمال والجنوب . أمّا الصَّبا وتسمّى القَبول ، فهبوبها من مطلع الشمس . قالالقزويني[٣٢٥] : وهي قريبة الى الاعتدال ، فإن كان هبوبها في أول النهار فهي مائلة الى البرد ،لأنّها تمرّ على مواضع باردة ، بردت ببعد الشمس عنها بالليل فتكون طيبة جداً الا انّ زمانها قليل ،لأن شعاع الشمس يسوقها من خلفها ، فاذا أشرقت الشمس ساقتها الى قدامها فلازالت تمرّ قدّامالشعاع والشمس تلطّفها وتسخنها بحرّها وضيائها حتى تصير معتدلة ، وهي النسيم التي تُدعى :الريح السحرية يلتذ الانسان بها ، فاذا مسّته يطيب له النوم عليها .

قلت : وعلى ذلك فما ألطف قول الملكعضدالدولة[٣٢٦] :

وقالوا أفيقُ من لذّة اللهو والصِّبا فقد لاحَ صبحٌ في دُجاكَ عجيبُ
فقلتُ أخلاّئي دَعوني ولذّتي فانّ الكَرى عندَ الصَّباح يَطيبُ

والمريض والمكروب يجد عند هبوب هذهالريح راحة ، فهبوبها بالاسحار من الليل والغدوات من النهار ، لأنّ في هذا الوقت اعتدال الهواءلاختلاط برودة الليل بحرارة النهار .

طريفة : حكى أبو الفرج في الأغاني قال :ان أهل المجنون[٣٢٧] خرجوا به معهم الى وادي

---

(٣٢٢) في القاموس (الازيب : الجنوب ، او النكباءتجري بينها وبين الصَّبا) .

(٣٢٣) هو ابو عبدالله محمد بن نصر المعروفبالقيسراني . توفى سنة ٥٤٧ (انوار الربيع ١/١٣٠) .

(٣٢٤) الأبيات في وفيات الاعيان ٤/٨٣ وفي روايتهااختلاف .

(٣٢٥) هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ (الاعلام ٣/٨٠) . والقول في كتابه عجائب المخلوقات /٦٣ .

(٣٢٦) هو ابو شجاع فناخسرو عضد الدولة بنالحسن بن بويه الديلمي . توفي ببغداد سنة ٣٧٢هـ (انوار الربيع ٤/٢٥٥) .

(٣٢٧) هو قيس بن الملوح (مجنون ليلى) . توفيسنة ٦٨هـ ، وقيل غير ذلك (الاعلام ٦/٦٠ وانوار الربيع ١/٣٧٦) .

ألقرى قبل توحّشه ليمتاروا خوفاً عليه من أن يضيع ويهلك . فمرّوا في طريقهم بجبلي نعمان ، فقال بعض فتيان الحي : هذان جبلا نعمان وقدكانت ليلى تنزل بهما ، قال : فأيّ الرياح تأتي من ناحيتهما ؟ قالوا : الصّبا ، قال : فوالله لا أريم هذاالموضع حتى تهبّ الصّبا . فأقاموا ومضوا ، فامتاروا لأنفسهم ، ثم أتوا عليه فأقاموامعه ثلاثة أيّام حتى هبّت الصّبا ، فانطلق معهم وأنشأ يقول :

أيا جَبَلَيْ نَعمان بالله خَلّيا ... نسيمَ الصّبا يَخْلُصْ اليَّ نَسيمُها
أجِدْ بَرْدَها أوتَسْفِ منّي حَرارةً ... على كبدٍ لم يبقَ الاّ صَميمُها
فانّ الصّبا ريحٌ اذا ما تنفّسَت ... على نفس مكروبٍ تجلّت همومُها[٣٢٨]

وقد أكثرت الشعراء من ذكر الصّبا ،فمن أحسن ما سمعت به في هذا الباب قول بعضهم :

ناشَدتُك الله نسيمَ الصّبا ... من أينَ هذا النّفَسُ الطيّبُ
هل أنتَ من لَيلى رسولُ الرّضا ... أم أنتَ عن أسرارها تُعرِبُ[٣٢٩]
أم جئتَ في أرضٍ بها قد مَشَت ... أم ثَغرُها قَبّلكَ الأشنَبُ
فهاتِ أتحِفْني بأخبارها ... فعهدُكَ اليومَ بها أقرَبُ

ومما هو أرقّ من النسيم قول ابن المعلّمالواسطي[٣٣٠] من قصيدته المشهورة :

تنبّهي يا عذباتِ الرّندِ ... كم ذا الكَرى هبّ نسيمُ نَجدِ
مرّ على الرّوضِ وجاء سَحَراً ... يَسحبُ بُردَيْ أرَجٍ وبَرْدِ
حتى اذا عانقتْ منه نفحةً ... عاد سَمُوماً والغرامُ يُشتدي[٣٣١]
واعجَبا منّيَ أستَشفي الصّبا ... وهَل تزيدُ النارَ غيرَ وَقدِ[٣٣٢]

والقصيدة كلّها على هذا النسق الذي فاقالدرر في أسلاكها ، والدراري في أفلاكها ، وقد اقتفيت أثره فقلت :

سَل الدّيارَ عن اُهَيْلِ نَجدِ ... انْ كانَ تَسْألُ الدّيارِ يُجدي

---

(٣٢٨) في الديوان والاغاني ٢/٢٤ (اذا ما تنسمتعلى نفس محزون) .
(٣٢٩) في ك (بشير الرضا) .
(٣٣٠) هو ابو الغنائم محمد بن علي الواسطيالمعروف بابن المعلم . توفي سنة ٥٩٢هـ (أنوار الربيع ٣/٧٨) .
(٣٣١) في خريدة القصر ـ القسم العراقي ـ ٤/٣٩ (نفحته) مكان (نفحة) .
(٣٣٢) في خريدة القصر (وما تزيد النار) .

وقِفْ بها نبكِ الطّلولَ ساعة ... لعلّه يَشفي غَليلَ وَجْدي[٣٣٣]

منازلٌ قد حُزتُ فيها أرَبي ... ونلتُ سُؤلي وقضيتُ وعدي

ما عنّ لي ذكرُ زمانٍ قد مَضى ... في ظلّها الاّ اهاجَ وَقْدي[٣٣٤]

أصْبو من الهند الى نَجدٍ هَوىً ... وأينَ نجدٌ من ديارِ الهندِ

والتقي كلَّ رياحٍ خطرَتْ ... أحسَبُها ليلاً نسيمَ نَجْدِ

آهٍ من البَين المُشتّ والنّوى ... كم قرّحا من كَبدٍ وخَدّ

فهل تَرى ينتظمُ الشّملُ الذي ... قد شتّتْه البينُ نثرَ العِقْدِ

وهل لأيّامِ الصّبا من مَرجعٍ ... أمْ هل لأيّامِ النّوى من بُعدِ[٣٣٥]

أنوحُ ما ناحَ الحمامُ غُدْوَةً ... هيهات ما قَصد الحمامِ قَصدي

أبكي وتَبكي لوعةً وطرَباً ... وما بكاءُ الهَزْلِ مثلَ الجِدّ

ظنّت حماماتُ النّوى عشيّةً ... في الحبِّ انّ عندَها ما عِندي

تبكي على غُصْنِ النّقا لهواً ومَن ... شَبّه غصناً في الهَوى بقَدّ[٣٣٦]

شتّان ما بين جوٍ وفَرحٍ ... وبينَ مُخفٍ سِرّهُ ومُبْدِي

ما مَشْربي صافٍ وانْ ساغ ولا ... عَيشيَ من بَعد النّوى برَغْدِ

سلْ أدمُعي عمّا تجنّهُ أضلُعي ... فالقلبُ يُخفي والدموعُ تُبْدي

كم انْشدُ الروضَ اذا هبّت صبا ... (تبسّمي يا عذباتِ الرّنْدِ)

وأما الدبور فتقابل الصّبا ، لأنّ هبوبها من مغرب الشمس ، وخواصها مخالفة لخواص الصّبا ، لانّها تهبّ والشمس مدبرة عنها فلاتسخنها تسخين الصّبا . وهبوبها في آخر النهار ولا تهبّ قبله ، ولا [تهبّ][٣٣٧] بالليل لانالشمس تبلغ محلّ مهبّها في ذلك الوقت ، فتتحلّل البخارات منه ، ولذلك يكون هبوبها قليلاً جدّاوأمّا الشمال فهي من ناحية الشام ، وهبوبها من تحت بنات نعش ، وهي باردة يابسة لأنّها تأتي منالجهة التي لا تسامتها الشمس أصلاً بل لا تقربها ، ويكون الثلج وجمود الماء بها كثيراً ، وهي أشدهبوباً من الجنوب لأنّها تهب من موضع ضيّق كالماء الذي يخرج من الانبوب الضيّق بخلافالجنوب ــ كذا في عجائب المخلوقات للقزويني .

---

(٣٣٣) ورد البيت في ديوان المؤلف هكذا :

وقف بهاتيك الرسوم ساعة ... لعلّه يطفي لهيب وجدي

(٣٣٤) في الديوان (بظلها الاّوهاج) .

(٣٣٥) في الديوان (رجعة) مكان (مرجع) .

(٣٣٦) رواية الديوان للبيت كالآتي :

تلهو على غصونها ومهجتي ... تصبو الى تلك القدود والمللِ

(٣٣٧) في الاصول (ولا تهب قبل ولا بالليل)والتصويب من عجائب المخلوقات /٦٣ .

والذي رأيناه في اليمن : ان الجنوب أشدّ هبوباً من كلّ الرياح ، فلعلّ ذلك في غير اليمن ، وتكون العلة ظاهرة حينئذٍ ، لأن الجنوب يمانيّة كما سنذكره ــ وقد ذكرت الشعراء الشمال في أقوالها ، فمن ذلك قول سيّدنا الشريف الرضي رضي الله عنه(*) من قصيدة :

وهبّتْ لأصحابي شَمالٌ لطيفةٌ قريبةُ عهدٍ بالحبيب بَليلُ
تَرانا اذا أنفاسُنا مُزجَتْ بها تَرنّحُ في أكوارنا ونميلُ
ولم أرَ نَشوى للشَمالِ عشيّةً كأنّ الذي غالَ الرؤوسَ شَمولُ

قال النواجي(٢٣٨) : وتجمع الشمال على شمائل ، ولذا حسن به التورية ، ومنه قول الشيخ شمس الدين محمد الأرموي(٢٣٩) :

كم للنسيم على الرُبى من نعمةٍ وفضيلةٍ بين الوَرى لن تُجحَدا
ما زارَها وشكَتْ اليه فاقةً الاّ وهزّ لها الشمائلَ بالندى

وكان الصاحب بن عباد رحمه الله يترنّم بقول أبي نواس(*) :

هبّتْ لنا ريحٌ شَماليّةٌ متّتْ الى القلبِ بأسبابِ(٢٤٠)
أدّتْ رسالاتِ الهَوى بَيْنَنا عرفتُها من بينِ أصحابي

قال في الحلبة : والله انّ الصاحب لمعذور ، فانّ هذا مما يرنّح الجماد .

وقال ابن حجة في تقديمه(٢٤١) بعد أن مثّل بهما لنوع النوادر : وقد جارى أبا نواس في بديع هذا النوع ونادرة هذا المعنى محيي الدين الخياط(٢٤٢) ، ولولا الحياط(٢٤٣) لقلت إنّه أحرز قصبات السبق عليه حيث قال :

يا نسيمَ الصَبا الوَلُوعَ بوَجدي حبّذا أنتَ انْ مررتَ بهِنْدِ(٢٤٤)
ولقد رابَني شَذاكَ فبالله هِ متَى عهدُهُ بأطلالِ نَجدِ

---

(٢٣٨) هو شمس الدين محمد بن حسن النواجي المتوفى سنة ٨٩٥هـ (معجم المؤلفين ٢٠٣/٩) .
(٢٣٩) لعله شمس الدين محمد بن الحسين بن محمد بن الحسين بن ظفر العلوي الحسيني الارموي المصري المعروف بقاضي العسكر المتوفى سنة ٦٥٠هـ (الوافي بالوفيات ١٧/٣ . في خزانة ابن حجة /٣٥٠ ؛ وانوار الربيع ٨٦/٥ (شمس الدين الادفوي) .
(٢٤٠) البيتان في حلبة الكميت للنواجي /٣١٧ وخزانة ابن حجة /٢٢٤ منسوبان لابي نواس ولا وجود لهما في ديوانه .
(٢٤١) سمّى ابن حجة الحموي شرحه لبديعيته التي احتواها كتابه خزانة الادب (تقديم ابي بكر) .
(٢٤٢) في خزانة ابن حجة /٢٢٤ (بدر الدين) مرة ، و (مجير الدين) اخرى ؛ والبيتان اللذان سيذكرهما المؤلف من قصيدة لابي عبدالله احمد بن محمد المعروف بابن الخياط الدمشقي المتوفى سنة ٥١٧هـ وموجودة في ديوانه . تراجم ترجمته ومصادرها في انوار الربيع ١٢٧/٤ ومقدمة ديوانه لخليل مردم .
(٢٤٣) في ع (الحباء) مكان (الحياط) ، والحياط : التحفّظ .
(٢٤٤) في الديوان (مررت بنجد) وتأتي قافية البيت الثاني (باطلال هند) .

قال : بين (ولقد رابني شـذاك) ، وبـين(عرفتها من بين أصحابي) معرك ذوقيّ لا يدركه الاّ من صفت مرآة ذوقه في علم الأدب . انتهى .

وأما الجنوب فتقابل الشمال وهي من ناحيةاليمن ، وهي حارة رطبة ، لأنّ هبوبها من ناحية خطّ الاستواء ، والحرّ هناك مفرط ، لأنّ الشمس تسامتها في السنة مرتين ، ولا تباعد عنها فتزداد بذلك حرّاً ، وأيضاً هذه الجهة كثيرة البخار فتبخرالشمس منها أبخرة كثيرة رطبة ، فتكتسب الجنوب منها الرطوبة ، وهي ترخي الأبدان وتحدث ثقلاًفي الأسماع وغشاوة في الأبصار ، وتورث الكسل ومن العجب أنّ الجنوب اذا هبّت على الماء الحارّ بردّته ، والشمال تتركه على حرارته كما كان .

قالوا : سبب ذلك أنّ عند هبوب الشـمال تكمن الحرارة في داخل الماء كما نرى في الشتاء ، فان الحرارة تكمن في جوف الأرض ، فيبقى داخلهاحاراً . وأمّا عند هبوب الجنوب فالحرارة تخرج من داخل الماء كما نرى في الصيف فانّ الحرارةتخرج من جـوف الأرض الى ظاهرهـا ، ويبقى (داخلها بارداً يعود الى طبعه)[٣٤٥] ، والعـربتحمد الجنوب لأنّها تنشيء السحاب ، ويزعمون انّ اللواقح انما تكون من الجنوب ، ولا مطر معشيء من الرياح ، والله أعلم . انتهى من عجـائب المخلوقات .

وكلّ ريح انحرفت عن مهابّ هذه الرياح الأربع فوقعت بين ريحين منها فهي نكباء ، وجمعها: نكب . ونظم بعضهم مهاب الرياح فقال :

شَمَلَت بشـامٍ والجَنـوبُ تيامنَتْ وصباً بشَـرقٍ والدَّبُـور بمغربِ

فائدة سنيّة : قـال العـلامـة بـدرالدينالدماميني[٣٤٦] في شرح التسهيل : قال ابن هشام : سألني سائل ، من أين تهبّ الصّبا ؟ فأنشدته[٣٤٧]:

ألم تَعلَمي يـا عَمـرَكِ الله انّني كريمٌ عـلى حـينَ الـكرامُ قليـلُ
وانّيَ لا أخزَى اذا قيـل مثمـلِقٌ سـخيٌّ وأخزى أن يُقـالَ بَخيـلُ

ولم يزد على ذلك ، وفيه غموض فتنبّه .انتهى .

وقال في شرح المغني بعد حكايته ذلك : وجهصلاحية هذا للجواب ، انه اشتمل على بناء (حين) المضافة الى الجملة في قوله (على حين الـكرامقليل) . فأشار به بيت مشارك له في هذا الحكم ، وهو قول الشاعر :

---

(٣٤٥) كذا ورد في الأصـول ، وجـاء في عجائبالمخلوقات (داخلها بارداً ، فخرجت الحرارة من داخل الماء عند هبـوب الجنوب ، والماء فيذاتـه بارد يعود الى طبعه) .

(٣٤٦) هو محمد بن ابي بكر المخزومي الاسكندريالمعروف بابن الدماميني . توفي سنة ٨٢٧هـ (انوار الربيع ٢/٥٦) .

(٣٤٧) البيتان من شواهد مغني اللبيب لابن هشام، يراجع الشاهد (٧٨٠) .

اذا قلتُ هذا حينَ أسلو يهيجني نسيمُ الصَّبا من حيثُ يطّلع الفَجر[٣٤٨]

حيث قيل فيه (حين أسلو) فبنى (حين)المضافة الى الجملة ، ولا يخفى ان هذا البيت المشار اليه بانشاد ذينك البيتين صريح في ذكر محل الصبا،اذ قيل فيه (نسيم الصبا من حيث يطّلع الفجر) . فظهر المقصود ولله الحمد . انتهى .

رجع : ثم لم نزل نقاسي محن الغربة ، ونكابدإحن الكربة ، وقد طالت أيّام البين والنوى ، واضطرمت لواعج الوجد والجوى ، تتجرّع منكأس الاغتراب ما هو أمرّ من العلقم ، ونعاني من بأس الاكتئاب ما يهون عنده نهش الأرقم . اذاعنّ التذكّر لما مضى تزايدت آلام الحزن والأسى ، واذا اعترض التفكر فيما حلّ به القضا ، قطعناالأيّام بلعلّ وعسى . فواها لتلك الأعوام التي مضت كيف انقضت ، وآهاً من هذه الأيام . (التيبرت كيف انبرت[٣٤٩]) .

وهكذا الدّهرُ مازالت نوائبُهُ تقلّب المرءَ بين الصّفو والكَدَرِ

ولقد كنت أبرز الى تلك الحدائق الأنيقة ،وأتنقّل فيها من حديقة الى حديقة ، لعلّي أجد بذلك سلوة عمّا أنا فيه ، وهيهات ما لمثلي وللتسلّيانّي اذن لسفيه . فأعود وقد تضاعفت بواعث الهمّ والتذكار ، وترادفت نوابّ الغمّ والأفكار .

وما ذاتُ طوقٍ في فُروع أراكةٍ لها رنّةٌ تحتَ الدّجى وصُدوحُ[٣٥٠]
ترامَتْ بها أيدي النّوى وتمكّنت بها فُرقةٌ من أهلها ونُزُوحُ
فحلّت بزوراء العراقِ وزغبُها بعُشّانَ ثاوٍ منهمُ وطليحُ
تحنُّ اليهم كلّما ذرّ شارقٌ وتسجعُ في جُنح الدّجى وتَنُوحُ
اذا ذكرتْهم هيّجت ذا بَلابلٍ وكادَتْ بمكتوم الغَرام تَبُوحُ
بأبرحَ من وجدي لذِكرى أحبّتي اذا لاحَ برقٌ أو تنسّمَ ريحُ[٣٥١]

ولم نزل من أمرنا على غمّة ، ومن دهرنا فيليالٍ مدلهمّة ، لا نعرف لمآلنا قبيلاً من دبير ، ولا نجد لما تشوّفه من الخبر من يقول علىالخبير . حتى وافت البشائر ، ونصبت للتهاني الأشائر ، بأن قد أقلع ذلك السحاب ، وجاء منألطاف الله تعالى ما لم يكن في الحساب ، وصفت الأحوال ، وسكنت الفتن ، فسكن الفؤاد عندذلك واطمأن . وأخذنا في أهبة السفر مستبشرين بالنيل والظفر ، زاعمين ان في وصولنا الى تلكالدار أمناً من شوائب الدهر والأكدار ، والقضاء يقول من مكمنه : قد يؤتى الحِذر من مأمنه .

---

(٣٤٨) براجع مغني اللبيب ايضاً ، الشاهد (٧٧٩) .
(٣٤٩) في ك (التي مرت كيف انمرت) .
(٣٥٠) الشعر لأبي منصور فخرالدين عيسى بنمودود صاحب تكريت المتوفى سنة ٥٨٤هـ (وفيات الاعيان ٣/١٦٦) .
(٣٥١) في وفيات الاعيان (بأبرح من وجدي لذكراكم مني ــ تالّق برق ...) .

ليتَ الذي علَّقَ الرجاءُ بهِ إذْ لم يَجُدْ للصَّبِّ لم يَجِدِ
لم يُثمِرِ الظنُّ الجميلُ بهِ فَقَدي من الظَنِّ الجميلِ قَدِي
كم مِن مطامعَ قد عَقَدتُ بها طَمَعي فحلَّ مرائِرَ المُقَدِ
وأعادَني منها على أسَفٍ وأباتَني فيها على ضَمَدِ

ولمّا أهاب بنا من البين داع ، وآن أوانالارتحال والوداع ، كتبت الى والي مخا السيّد المقدم ذكره ــ وكان قد عاد من حضرة مخدومهالى خدمته ــ بهذين البيتين :

مددتُ الى التَوديعِ كفاً ضَعيفةً وأُخرى على الرَمضاءِ فوقَ فُؤادي
فلا كانَ هذا العهدُ آخِرَ عهدِنا ولا كانَ ذا التَوديعُ آخِرَ زادي

وهذان البيتان أنشدهما أبو المعالي عزيزي بن عبدالملك[٣٥٢] قال أنشدنيهما والدي عند خروجه الى الحج •

فكتبَ اليَّ السيد المشار اليه قول أبيالطيب[٣٥٣] :

يا من يَعِزُّ علينا أن نُفارقَهم وجدانُنا كلَّ شيءٍ بَعدكم عَدَمُ

ثم ودعناه توديع الولد للوالد ، ولقينامن فراقه ما هان معه الطارف والتالد ، فشيَّعنا تشييع الأقارب ، الى أنْ تبطَّنا القارب ، فشكر الله سعيه وأدام بفضله رعيه •

أبو تمام[٣٥٤] :

وما ابنُ آدمَ الاّ ذكرُ صالحةٍ أو ذكرُ سيِّئةٍ يَسري بها الكَلِمُ
أما سمعتَ بدهرٍ بادَ أمَّتُهُ جاءَتْ بأخبارِها من بعدها أمَمُ

وكان خروجنا من المخا يوم السبت لثمانخلون من ذي القعدة الحرام سنة سبع وستين ، فكانت مدة اقامتنا بها أربعة عشر شهراً وستة أيام ،وعلى ذلك فما ألطف قول عمر بن أبي ربيعة[٣٥٥] :

باللهِ قولي لهُ في غيرِ مَعتَبةٍ ماذا أردتَ بطولِ المُكثِ فيالِيَمنِ[٣٥٦]
ان كنتَ حاولتَ دُنياً قد رضيتَ بها فما أصبتَ بتركِ الحجِّ مِن ثَمنِ

---

(٣٥٢) هو عزيزي بن عبدالملك بن منصور الجيليالمعروف بشيذلة ، فقيه واعظ ، توفي سنة ٦٩٤هـ (معجم المؤلفين ٦/٢٨١) .
(٣٥٣) هو ابو الطيب المتنبي (احمد بن الحسين)المقتول سنة ٣٥٤هـ (معجم المؤلفين ١/٢٠١) .
(٣٥٤) لا وجود للبيتين في ديوان ابي تمام ،وأوردهما ابن عبد ربه في العقد الفريد ١/٢٣٢ منسوبين اليه .
(٣٥٥) هو ابو الخطاب عمر بن ابي ربيعة المخزومي. توفي سنة ٩٣هـ (انوار الربيع ٢/٩٣) .
(٣٥٦) البيتان في الديوان وفي روايتهما اختلاف .

أخبر خلاد بن يزيد الباهلي[٣٥٧] قال : ركب ابن جريج[٣٥٨] دين ـ سمّاه وكثّره ـ فأتى معن بن زائدة[٣٥٩] باليمن فوعده فطول عليه ،قال ابن جريج : اني لفي منزلي ودخل شهر الحج فذكرت بيتي عمر ـ بالله قولي له ، البيتين ـ قال :قلت : والله هو ذلك ، وأصبحت غادياً على معن فقلت : أستودع الله الأمير ، قال : وما ذاك ؟ قلت :حضر الحج وطال مقامي ، قال : لا والله ولكن هذا حادث رأي . فلم يزل بي حتى أنشدته بيتي عمر ،فقال : لا جرم ، لا تمش حتى تقضي حاجتك . وكان معن يتولى عمل اليمن للمنصور ، ثم تولاها بعده ابنه زائدة .

قلت : والشيء بالشيء يذكر ، والحديث شجون . قيل : ان المنصور سخط على أحمد بن يزيد السلمي فصرفه عن أرمينية ، وألزمه بيته ،فنمي الخبر الى معن وهو يتقلّد اليمن ، فكتب اليه :

نمي اليّ يا أمير المؤمنين ان سخطة لحقت أحمد بن يزيد بن اسيد السلمي من أمير المؤمنين ، ولم تزل الملوك تعاقب على أشياء ، وتصفح عن أشياء ، فامّا الذي تعاقب عليه : فالقدح في الملك ، وافشاء السرّ ، والتعرّض للحرم . وامّا الذي تصفح عنه : فاحتجان الأموال ، فانّ مال الخادم للمخدوم ، في يومه وغده . فان كان أحمد بن يزيد أتى ما يعاقب عليه الملوك فما ينبغي أن يكون حيّاً وان كان احتجن مالاً فأحمد خيرٌ لأمير المؤمنين من أرمينية وأموالها . فقال المنصور : أفٍ لكم معاشر الكتّاب ، ذهب عليكم ان تخبروني به حتى تناولني به معن من اليمن ، على لوثة[٣٦٠] أعرابية . ووجه الى أحمد بن يزيد فخلع عليه وردّه الى عمله .

وما كلُّ ذي لبٍّ بمؤتيكَ نصحَهُ ولا كلُّ مؤتٍ نصحَه بلبيبِ[٣٦١]
ولكنّ اذا ما استجمعا عند واحدٍ فحُقّ له من طاعةٍ بنصيبِ

ولما امتطينا من السفينة صهاها ، وتلونا « باسم الله مجراها ومرساها[٣٦٢] » شاهدنا من هذا البحر الزاخر ، ما انسينا معه الأول والآخر ،حتى استبان لنا ان ذلك البحر الذي أكبرناه ، وأنكرنا منه ما أنكرناه ، انّما هو قطرة من ماء ،بالنسبة الى هذا الداماء[٣٦٣] . ولقد سرنا فيه أياماً لا نرى سوى الماء تحت السماء . (وما ألطف قول بعض المعاصرين[٣٦٤]) .

---

(٣٥٧) توفي خلاد بن يزيد سنة ٢٢٠هـ . في الاصول(بن زيد) والتصويب من ميزان الاعتدال ١/٦٥٧.
(٣٥٨) هو ابو خالد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج الرومي فقيه حافظ . توفي سنة ١٥٠هـ (معجم المؤلفين ٦/١٨٣) .
(٣٥٩) هو معن بن زائدة الشيباني امير جواد قتله الخوارج سنة ١٥١هـ (الاعلام ٨/١٩٢) .
(٣٦٠) يريد باللوثة ـ هنا ـ : البطء والتمكث في العمل .
(٣٦١) البيتان لأبي الأسود الدؤلي (ظالم بن عمرو) المتوفى سنة ٦٩هـ (انباه الرواة ١/١٢) .
(٣٦٢) سورة هود /٤١ .
(٣٦٣) الداماء : البحر .
(٣٦٤) كذا في (ع) . وجاء في (ا) بعد كلمة المعاصرين(وهو المؤلف) . وفي ك . (وقلت فيه) مكان الجملة التي بين القوسين .

قالوا مسيرُ الفُلكِ في بَحرِه كالطَّيرِ يَسري بجناحَين
والفرقُ ما بينهما واضحٌ لكلِّ ذي عَينٍ بلا مَيْنِ[٣٦٥]
الطيرُ في الجوِّ غَدا طائراً بينَ السَّما والأرض عن عَينِ
وفُلكُنا لما طَمَا بَحرُه طارَ بنا بينَ سَمائَينِ

وللصاحب تاج‌الدين :

أنظرْ الى قِطَعِ المراكبِ اذ بَدَتْ والماءُ يَعلو حولَها ويَدُورُ
مثلَ السَّحائبِ لا يُفرَّق بينَها نظرٌ وكلٌّ بالرِّياح يسيرُ

ولابن النطاح[٣٦٦] يصف البحر :

يا مادحَ البَحر وهو يَجْهلُهُ مَهلاً كفاني قليلُه عِلْما
مكسَبُه مثلُ قَعرِه بُعْدا ورزقُه مثل مائِه طَعْما[٣٦٧]

ابن رشيق(*) في ذمه وركوبه :

البحرُ صَعْبُ المَرام مرءٌ لا جَمِلَتْ حاجَتي اليهِ
أليسَ ماءٌ ونحنُ طِينٌ فما عَسى صَبرُنا عَليهِ

وقال ابن حمديس[٣٦٨] : اجتمعت مع أبي‌الفضل جعفر بن المقترح[٣٦٩] الكاتب بسبتة فذكر لي بيتي ابن رشيق ثم قال : أتقدر على اختصارهذا المعنى ؟ فقلت : نعم أقدر على ذلك وأنشدته[٣٧٠] :

لا أركبُ البحرَ خَوفاً عَليَّ منه المَعاطِبُ
طِينٌ أنا وهوَ ماءٌ والطِّينُ في الماءِ ذائِبُ

فاستحسن ذلك اذ كان على الحال ، فأقام‌عني أياماً ثم اجتمعت به فأنشدني لنفسه في المعنى :

---

(٣٦٥) في ك (لكل ذي لبٍّ) .

(٣٦٦) (ابن النطاح) كذا ورد في الاصول ، ومعاهدالتنصيص ٢/٢٥ ، ولعله بكر بن النطاح المتوفى سنة ١٩٢هـ (الاعلام ٢/٤٦) ، او انه : ابومحمد عبدالله بن الطباخ الكاتب ، ورد ذكره في نوادر المخطوطات (الرسالة المصرية) ١/٥٣ ،وترجم له العماد في خريدة القصر (قسم شعراء مصر) ٢/٩٨ ولم يذكر تاريخ وفاته .

(٣٦٧) البعد (بضمتين) : لغة في البعد (بضم فسكون) .

(٣٦٨) هو عبدالجبار بن ابي بكر بن حمديس‌الصقلي . توفي سنة ٥٢٧هـ (انوار الربيع ٤/٢٣٤) .

(٣٦٩) في الاصول (جعفر بن الموج) والتصويب‌من معاهد التنصيص ، وديوان ابن حمديس .

(٣٧٠) انفردت (ا) في ايراد كلمة (وانشدته) ، وهي‌موجودة في معاهد التنصيص ٢/٢٥ وديوان ابن حمديس .

ان ابـــنَ آدمَ طـــــينٌ والبحرُ مـاءٌ يذِيبُـــهُ
لولا الذي فيـــه يُتْـلى ماجازَ عندِي رُكوبُه[٢٧١]

فأنشدته :

وأخضـرَ لولا آيـةٌ مـا ركبتُـــهُ وذلكَ تصريفُ القَضـاءِ بما شـــاءَ
أقولُ حـذاراً من رُكـوبِ عُبابِـه أيا ربِّ انَّ الطينَ قـد ركبَ المـــاءَ

ومن بديع انشـاء ابن حجـة الحموي(*)رسالته البحريـة التي كتب بهـا الى البـــدر الدماميني(*) يصف البحر والسفينة ، منها قوله :

يامولانا وأبثك ما لاقيت من أهوال هـذا البحر ، وأحدّث عنه ولا حرج ، فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطّع منها القلب لمّا دخل الى دوائر تلك اللجج ، وشـاهدت منه سـلطاناً جائراً « يأخذ كلّ سفينة غصبا[٢٧٢] » . ونظرت الى الجوار الحسان وقد رمت ازْرَ قلوعهـا ، وهي بين يديه لقلّة رجالها تسبى ، فتحقّقت أنّ رأي من جاء يسعى في الفلك جالساً غير صائب ، واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب .وزاد الظمأ بالمملوك وقد اتخذ في البحر سبيله ، وكم قلت من شدّة الظمأ : يا ترى قبل الحفرة هل أطوي من البحر هذه الشقة الطويلة :

وهل اُباكرُ بحرَ النّيـل مُنشَـــرحاً وأشـربُ الحلوَ من أكوابِ مَلاّحِ

بحر تلاطمت علينا أمواجـه حين متنـا من الخوف ، وحملنـا على نعش الغـراب ، وقامت واوات دوائره مقامع فنصبتنا للغرق لما اسـتوت المياه والأخشاب ، وقارن العبد فيهـا سـوداء استرقّت مواليها وهي جارية « وغشـيهم منهـا ما غشـيهم[٢٧٣] » ، « فهـل أتـاك حـديث الغاشية[٢٧٤] » . واقعها الحَرَبُ فحملت بنـا ،ودخلها الماء فجاءها المخاض ، وانشق قلبها لفقد رجالها . فجرى ما جرى على ذلك القلب وفاض .وتوشّحت بالسواد في هذا المأتم ، وسـارت على البحر وهي مُثْكِل ، وكم سمع للمغاربة على ذلك التوشيح زجل . برج مائي ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت ، وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسنّدة عدّ من المقبرين في تابوت . تأتي بالطباق ولكن بالقلوب ، لأن صغيرها كبير ،وبياضها سواد ، وتمشـي على الماء ، وتطير مـع الهواء ، وصلاحها عين الفسـاد . ان نقّر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود ، وترقصنا على آلتها الحدباء فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود . تتشامم وهي ــ كما قيل ــ أنف في السماء وأست في الماء ، وكم نطيل الشكوى الى قامة صاريها[٢٧٥] عند الميل وهي الصعدة الصمّاء ،

---

(٢٧١) يريد الآية الكريمة « وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها » سورة هود /٤١ .
(٢٧٢) سورة الكهف /٧٩ .
(٢٧٣) سورة طه /٧٨ .
(٢٧٤) اصل الآية (هل اتاك حديث الغاشية) سورة الغاشية /١ .
(٢٧٥) الصاري : عمود يركز قائماً في وسط السفينة يعلّق به الشراع ، جمعه صوار .

فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين ، وتتصابى اذاهبّت الصبّا وهي ابنة مائة وثمانين ، وتوقف أحوال القوم « وهي تجري بهم في موج كالجبال[٣٧٦] » وتدعي براءة الذمّة وكم استغرقت لهم من أموال . هذا وكم ضعف نحيلٌ خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج ، وكم وجلت القلوب لمّا صار لأهداب مجاذيفها في مقلة البحر اختلاج ،وكم أسبلت على وجنة طرّة قِلعها فبالغ الريح في تشويشها ، وكم مرّ على قريتها العامرة فتركها« وهي خاوية على عروشها[٣٧٧] » . تتعاظم فتهزل الى أن ترى ضلوعها من السقم تتعدّ ، ولقدرأيناها بعد ذلك قد ثبتت وهي « حمّالة الحطب في جيدها حبل من مسد[٣٧٨] » .

لطيفة : ذكر القاضي ابن خلكان قال : حكىتاج العُلى أبو زيد المعروف بالنسّابة قال : حدثني أبو الأصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمدالحارثي الأندلسي عن جده زيد بن محمد قال : بعث المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية[٣٧٩] الى أبيالعرب الزبيري خمسمائة دينار ، وأمره ان يتجهز بها ويتوجه اليه ــ وكان بجزيرة صقلية وهو من أهلها،وهو أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الصقلي الشاعر[٣٨٠] ــ وبعث مثلها الىأبي الحسن الحصري[٣٨١] وهو بالقيروان ، فكتب اليه أبو العرب :

لا تَعجبَنّ لراسي كيفَ شابَ أسىً ... واعجَبْ لأسودِ عَيني كيفَ لم يَشِبِ
البحرُ للرّوم لا تَجري بهِ سُفُنٌ ... الاّ عَلى غَرَرٍ والبرُّ لِلعَربِ[٣٨٢]

وكتب اليه الحصري(*) :

أمَرّتَني بركوبِ البَحرِ أقطعُهُ ... غيري ،لكالخير، فاخصصه بذا الداء[٣٨٣]
ما أنتَ نوحٌ فتُنجيني سَفينتُهُ ... ولا المسيحُ أنا أمشي عَلى الماء

وما ألطف قول الخباز البلدي[٣٨٤] وقدسافر محبوبه في البحر :

---

(٣٧٦) سورة هود /٤٢ .
(٣٧٧) سورة البقرة /٢٥٩ وسورة الكهف /٤٢ .
(٣٧٨) سورة ابي لهب /٥ .
(٣٧٩) هو ابو القاسم المعتمد على الله بن المعتضدبالله عباد اكبر ملوك الطوائف . توفي سنة ٤٨٨هـ (انوار الربيع ١/١٠٣) .
(٣٨٠) توفي ابو العرب مصعب سنة ٥٠٦هـ وقيل :كان حيا سنة ٥٠٧ (انوار الربيع ٢/٣٩) .
(٣٨١) هو ابو الحسن علي بن عبدالغني الحصري .توفي سنة ٤٨٨هـ (معجم المؤلفين ٧/١٢٥) .
(٣٨٢) في وفيات الأعيان ٣/٢١ (لا يجري السفينبه) .
(٣٨٣) البيتان منسوبان ايضاً لابن رشيق وهما فيديوانه . وفيه رواية البيت الأول كالآتي :
امرتني بركوب البحر مجتهداً ... وقد عصيتك فاختر غير ذا الداء
وما اثبته المؤلف موافق لرواية وفياتالاعيان .
(٣٨٤) هو ابو بكر محمد بن احمد بن الحسين بنحمدان المعروف بالخباز البلدي . لم اقف على تاريخ وفاته . تراجع ترجمته في يتيمة الدهر٢/٢٠٨ ، والذريعة الى تصانيف الشيعة ٩/٢٨٨ .

سـار الحبيـبُ وخلّفَ القلبـا يُبدي العزاءَ ويُضمرُ الكَربـا[٣٨٥]
قد قلتُ اذْ سارَ السَّفينُ به والشوقُ ينهبُ مهجتي نَهبـا
لو انّ لي عِزّاً أصولُ بـه لأخذتُ كلَّ سفينةٍ غَصْبـا

قيل : وليس في المعمور أعظم من هذا البحرالذي ركبناه وهو البحر الهندي ، ويقال له : الحبشي .

قال المسعودي : يمتد طوله من المغرب الىالمشرق ، من أقصى الحبش الى أقصى الهند والصين ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفان وتسعمائة ، وفيمواضع أخر الف وتسعمائة ، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع ويكثر . وقد قيلفي طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة أعرضنا عن ذكره لعدم الدلالة على صحته عند أهل هذهالصناعة .

وقد ذكر كيفية تشعّب الخلجان منه ،وامتدادها الى اماكن لا حاجة بنا الى ذكرها . وان بحر فارس ، وبحر اليمن ، وبحر القلزم ، وبحرالحبش ، وبحر الزنج ، وبحر الصين كل هذه البحور خلجان من هذا البحر . وعدّ بحوراًأخرى تتشعب من هذا البحر ، ولسنا بصدد بيان ذلك . ولا بأس بذكر شيء من أخبار البحروعجائبه ، وجزائره الى غير ذلك مما يفضي اليه المقام لما فيه من الاشارة الى كمال قدرة الله تعالىوعظيم سلطانه .

فَفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدلُّ على أنّه واحِدُ[٣٨٦]

تنازع المتقدمون من الحكماء في مبادىءكون البحار وعللها . فذهب طائفة منهم الى انّ البحر هو بقيّة من الرطوبة الأولى التي جفّفأكثرها جوهر النار ، وما بقي منها استحال لاحتراقه ملحاً .

ومنهم من قال : انّ الرطوبة الأولى المجتمعةلما احترقت بدوران الشمس وانحصر الصفو منها استحال الباقي الى ملوحة ومرارة .

ومنهم من رأى أنّ البحار عرق تعرقهالأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها .

ومنهم من رأى أنّ البحر هو ما بقي ممـاصفّته الأرض (من الرطوبة الثانية[٣٨٧]) . وقيل غير ذلك .

وهو خلاف لا ثمرة فيه . وذكر انّ الله تعالىلما أمر نوحاً (ع) بركوب السفينة (وغرق الأرض[٣٨٨]) خمسة أشهر ، ثم أمر الأرض أنتبلع الماء ، والسماء ان تقلع ، واستوت على

(٣٨٥) في (ع و ك) : ويظهر الكربا . وفي (ا) :ويبدى الكربا . والتصويب من يتيمة الدهر .
(٣٨٦) البيت لأبي العتاهية . والذي في الديوان (وفي كلّ شيء) .
(٣٨٧) في مروج الذهب ١/١٢٧ (من الرطوبة المائية) .
(٣٨٨) في مروج الذهب ١/٤٠ (وقد غرق جميع الارض) .

الجودى ، أسرع بعض الأرض الى بلع الماء عندما أمرت ، وبعضها لم يسرع • فمن أطاع كان ماؤه عذباً اذا احتفر ، ومن تأخّر أعقبه اللّه بماءٍ ملح •وما تخلّف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه صار[٣٨٩] الى قعور مواضع من الأرض ، فمن ذلك البحار وهي بقية ماء غضبٍ أهلك به أمم • كذا نقله المسعودي في أول كتابه •

وهذا ان صح في الأثر فلا كلام ، والاّ فقضيته أنّ البحار لم تتكون قبل زمان نوح (ع) وفيه نظر ظاهر لمن تتبّع الأثر •

وذكر صاحب المنطق : أنّ مواضع البرّ ليست هي أبداً برّاً ، ولا مواضع البحر أبداً بحراً بل قد تكون براً حيث كان مرة بحراً ، وتكون بحراً حيث كان مرة براً ، وعلّة ذلك الأنهار وبدؤها ، فان لمواضع الأنهار شباباً وهرماً ، وحياةوموتاً ونشوراً كما يكون ذلك في الحيوان ، الاّ أنّ الشباب والكبر في الحيوان لا يكون جزءأبعد جزء ، بل تشبّ وتكبر اجزاؤها معاً ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد • فاما الأرض فانهاتهرم وتكبر جزءاً بعد جزءٍ وذلك بدوران الشمس • وقد اختلف في علة المدّ والجزر اختلافاًطويلاً لا حاجة بنا الى التطويل بذكره •

وامّا عجائب البحر فلا تدخل تحت الحصر ،ويكفي في ذلك الحديث : حدثوا عن البحر ولا حرج • قيل : الواو للحال ، أي حدّثوا عنه حالالا حرج عليكم في ذلك • ولنذكر منها نبذة مستطرفة :

قال القشيري : يقال : انّ سليمان (ع) سألربّه أن يأذن له أن يضيف يوماً جميع الحيوانات ، فأذن الله تعالى له ، فأخذ في جمع الطعام مدة طويلة،فأرسل الله تعالى له حوتاً واحداً من البحر فأكل كلّ ما جمعه سليمان في تلك المدة الطويلة ثماستزاد ، فقال سليمان : لم يبق لي شيء ، ثم قال له : وأنت تأكل كلّ يوم مثل هذا ؟ فقال : رزقيكلّ يوم ثلاثة أضعاف هذا ، ولكن الله تعالى لم يطعمني اليوم الاّ ما أطعمتني أنت ؛ فليتك لمتضفني ، فاني بقيت اليوم جائعاً حيث كنت ضيفك •

وفي هذا اشارة الى عظيم سلطان الله تعالىوسعة خزائنه . اذ مثل سليمان (ع) مع عظم ملكه الذي آتاه الله تعالى عجز عن أن يشبع مخلوقاً منمخلوقات الله تعالى ، ثم انظر ما اشتمل عليه البحر مما يشبع هذا الحوت في كل يوم ، فسبحانالمتكفّل بخلقه •

وقال أبو حامد الأندلسي[٣٩٠] : رأيت سمكةبقرب مدينة سبتة من نسل الحوت الذي أكل منه موسى (ع) وفتاه يوشع ، فأحيا الله نصفه فاتخذسبيله في البحر سربا ، ونسلها في البحر الى الآن في ذلك الموضع ، وهي سمكة طولها أكثر من ذراع،وعرضها شبر واحد ، في جانبيها شوك وعظام ،

---

(٣٨٩) في مروج الذهب (انحدر) مكان (صار) •
(٣٩٠) ابو حامد الاندلسي صاحب كتاب تحفةالغرائب . كان حيا سنة ٥٥٦هـ ؛ يروي عن كتابه كلّ من الدميري في كتابه حياة الحيوان ،والقزويني في كتابه عجائب المخلوقات (كشف الظنون /١١٢٧ و ١١٢٨) •

وجلدها رقيق على أحشـائها (ولها عين ونصف رأس[٣٩١]) من رآها من هذا الجانب استقذرها ، ويحسب أنها مأكولة ميّتة ، ونصفها الآخر صحيح،والناس يتبركون بها ويهدونها الى المواضع البعيدة قال ابن عطية[٣٩٢] : وأنا رأيته كذلك .

(وعن ابن عباس[٣٩٣]) ان الحوت انما حييلانه مسه ماء عين هنالك تدعى عين الحيـاة ، ما مسّت شيئاً ميتاً قطّ الاّ وحيي ، وكانت حياةالحوت عند مجمع البحرين : بحر [العرب] وبحر القلزم[٣٩٤] مما يلي الشرق ، وقيل : هما بحـرالأردن ، وبحر القلزم ، وقيل غير ذلك .

والحكمة في جمع موسى مع الخضر عليهماالسلام بمجمع البحرين : انّهما بحران في العلم ، احدهما أعلم بالظاهر ــ يعني الشرع ــ وهوموسى (ع) ، والآخر أعلم بالباطن ــ يعني علم الحقيقة وأسرار الملكوت ــ وهو الخضر (ع) .كذا في حياة الحيوان الكبرى للدميري .

ومن العجائب ما حكاه القزويني في عجائبالمخلوقات عن عبدالرحمن بن هارون المغربي قال : ركبت بحر المغرب فوصلنا الى موضع يقال لـه :البرطون ، وكان معنا غلام صقلّي معـه صنارة فألقاها في البحر ، فاصطاد سمكة نحو الشبر ،فاذا خلف اذنها اليمنى مكتوب : لا اله الاّ الله ، وفي قفاها : محمد ، وخلف اذنها اليسرى : رسولالله .

ومن عجائب البحر : انسان الماء ، وهو يشبهالانسان الاّ ان له ذنباً . قال القزويني : وقد جاء شخص بواحد منها في زماننا مقدداً كما ذكرنـا ،ويقال : انه يظهر في بحر الشام في بعض الأوقـات من شكله شكل انسان ، وله لحية بيضاء يسمونه :شيخ البحر ، فاذا رآه الناس استبشروا بالخصب .

وحكي أن بعض الملوك حمل له انسان الماء ،فأراد الملك أن يعرف حاله فزوّجه امرأة ، فأتاه منها ولد يفهم كلام أبويه ، فقال للولد : ما يقول أبوك ؟قال يقول : أذناب الحيوانات كلّها في أسـفلها ، فما بال هولاء أذنابهم في وجوههم ؟ وبنات المـاءكالنساء .

قال ابن أبي الأشعث : هي سمك ببحر الروم تشبه النساء ، ألوانهنّ الى السمرة ، ذوات شعور وفروج عظام وثـدي ، وكلام لا يـكاد يفهـم ،ويضحكون ويقهقهون ، وربّما وقعن في أيـدي بعض أهل المراكب فينكحوهنّ ثم يعيدونهن الىالبحر . ويقال : ان هذا الجنس يوجـد في برّ رشيد[٣٩٥] .

---

(٣٩١) في ع (وعينها وراسها نصف راس) وفي ك ،و ا ا وراسها نصف راس) والتصويب من حيـاة الحيوان ١/٢٦٩ .

(٣٩٢) (ابن عطية) يروي عنه الدميري في كتابـهالمذكور .

(٣٩٣) في حياة الحيوان (ومن غريب ما يـرويالبخاري عن ابن عباس في قصص هذه الآية) .

(٣٩٤) (بحر القلزم) كذا ورد في الاصول ، وفي حياةالحيوان (بحر الروم) .
قال سـيد قطب ــ في ظلال القـرآن ، فيتفسير الآية (٦٠) من سورة الكهف ــ : والارجح ــ والله اعلم ــ انه مجمع البحرين : بحر الروموبحر القلزم ، اي البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر ، ومجمعهما : مكان التقائهما في منطقةالبحيرات المرة وبحيرة التمساح .

(٣٩٥) رشيد : بلدة على ساحل البحر والنيل قربالاسكندرية .

وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجازي ،قال : حدثني بعض التجار : انه في سنة من السنين خرجت اليهم سمكة عظيمة ، فنقبوا أُذنها وجعلوافيها الحبال وأخرجوها ، ففتحت اذنهـا فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء ، سوداء الشعر ، حمراءالخدين نجلاء العينين من أحسـن ما تكون من النساء ، ومن سرّتها الى نصف ساقيها شيءكالثوب يستر قبلها ودبرها ، ودائر عليها كالإزار ، فأخذتها الرجال الى البر فصارت تلطم وجهها ،وتنتف شعرها ، وتعضّ يديها ، وتصيح كما يصيح النساء حتى ماتت في أيديهم ، فألقوها في البحر ،فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقال صاحب تحفة الغرائب : حدثني الشيخأبو العباس الحجازي قال : حدثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد انّه ركب سفينةفي بحر الهند ، فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر ، وأجمل ألوانـاً ، قال :فكبّرنا لحسنه ، فجعل يسبح وينظر الى نفسه ، ينشر أجنحته وينظر الى ذنبه ساعة ثم غاص فيالبحر .

وفرس البحر يوجد بالنيل أفطس الوجه ،ناصيته كالفرس ، وأرجله كالبقر ، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير ، وجلده غليظ ، ووجهه أوسعمن وجه الفرس . يصعد البرّ ، ويرعى الزرع ، وربما قتل الانسان وغيره .

وفي البحر سمكة تسمّى (الدلفين) تنجيالغريق ، يدنو منها فتمكّنه من ظهرها ليستعين على السباحة فتكون من أقوى الأسباب في نجاته ،وصفتها كصفة الزقّ المنفوخ ، ولها رأس صغير جداً ولا تؤذي أحداً ، ولا تأكل الاّ السمك .

وحكى القزويني : انه يؤتى في بعض الجزائرعلى قصر مصنوع من بلّور على قلعة محكمة البناء ، وحولها قناديل لا تطفأ .

ونقل عن أبي حامد الأندلسي صاحب تحفةالغرائب(*) : انّ على البحر الأسود(٣٩٦) من ناحية الأندلس كنيسة من الصخر منقورة في الجبل عليهاقبة عظيمة ، وعلى القبة غراب لا يبرح . ومقابلة القبة مسجد تزوره الناس ، يقولون : ان الدعاءفيه مستجاب . وقد شرط على القسيسين ضيافة من زار ذلك المسجد من المسلمين ، فاذا قدم زائرادخل الغراب رأسه في روزنة على تلك القبة ويصيح صيحة ، فان قدم اثنان صاح صيحتين وهكذا كلماقدم زوّار صاح على عددهم ، فيخرج الرهبان بطعام يكفي الزائرين . وتعرف تلك الكنيسةبكنيسة الغراب ، ويزعم القسيسون انّهم مازالوا يرون غراباً على تلك القبة ولا يدرون من أين يأكل.

ومن جزائر البحر العجيبة : جزيرة القمْر(بضم القاف واسكان الميم ثم راء مهملة)(٣٩٧) طولها أربعة عشر في عرض عشرين يوماً الى أقلمن ذلك ، وتحاذي جزيرة سرنديب ــ كذا في

---

(٣٩٦) (البحر الاسود) كذا ورد في الاصولوعجائب المخلوقات /٨٢ ، ولعل المقصود (بحر الظلمات) وهو المحيط الاطلسي .

(٣٩٧) كذا ضبطها ياقوت ايضاً في معجمه وقال(هي في وسط بحر الزنج ، وليس في ذلك البحر اكبر منها . فيها عدة مدن وملوك ، ويوجدفي سواحلها العنبر) .

الخطط ــ وقال السمعاني في الأنساب : أظنّهابمصر • وفي المستطرف : يقال انها بالقرب من نيل مصر • قال : ويقال ان بها شجراً طول الشجرةمائتا ذراع ، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً ، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفونبورق الشجر ؛ وهو ورق يشبه ورق الموز لكنّه أسمك وأعرض وأنعم ، ويقال انّ هذه الأمة التيبها يتمذهبون بمذهب الشافعي ، وهم في غاية اللّطافة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر •بالقرب منهم معدن الذهب والياقوت ، وبها الفيلة البيض ، وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوشوغيرها ، وبها العود القماري ، والأبنوس ، والطواويس ، وبها مدن كثيرة • قال في الخطط :واليها ينسب الطائر القمري • ونقله السمعاني في الانساب أيضاً عن صاحب الجمل قال : والقمريطائر ينسب الى هذه البلدة •

ومنها جزيرة واق خلف جبل يقال له أصطنوندداخل البحر الجنوبي ، قال القزويني : انّ هذه الجزيرة كانت ملكتهـا امرأة ، وان بعضالمسافرين[٣٩٨] وصل اليها ودخل فرأى هذه الملكة وهي جالسة على سرير ، وعلى رأسها تاج منالذهب ، وحولها أربعمائة وصيفة[٣٩٩] كلهنّ أبكار • قيل : وفي هذه الجزيرة شجر يشبه شجرالجوز والخيار الشنبر[٤٠٠] ويحمل حملاً كهيئة الانسان ، فاذا انتهى يسمع له تصويت يسمع منه(واق) ثم يسقط •

وعن الجاحظ ان الواق واق نتاج بين بعضالنبات وبين بعض الحيوانات ، ذكره الدميري في حياة الحيوان الكبرى •

قال القزويني : وهذه الجزيرة كثيرة الذهب،يقال ان (سلاسل خيلهم ومقاود كلابهم وأطواقها[٤٠١]) من الذهب ، والله سبحانه أعلم •

وبالجملة فعجائب البحر لا تدخل تحتالحصر ، وهذه قطرة من بحر ، وقليل من كثير •

غريبة : روى أبو نعيم في الحلية في ترجمةسفيان بن عيينه عن مسعر[٤٠٢] بن كدام انّه قال : ان رجلاً ركب البحر فانكسرت السفينة فوقع فيجزيرة ، فمكث ثلاثة أيام لم ير أحداً ، ولم يأكل ولم يشرب فتمثل فقال :

اذا شـــابَ الغـــرابُ أتيتُ أهـلي وصـــار القـارُ كاللبنِ الحليبِ[٤٠٣]

فأجابه صوت مجيب يُسمع صوته ولا يُرىشخصه وهو يقول :

---

(٣٩٨) في عجائب المخلوقات /٧١ (قال موسى بنالمبارك السيرافي : دخلت عليها فرايتها على سرير عريانة ، وعلى راسها تاج ...) .
(٣٩٩) في المصدر المذكور (اربعة الاف وصيفة) .
(٤٠٠) في القاموس (خيار شنبر : شجر) .
(٤٠١) في عجائب المخلوقات (سلاسل كلابهم واطواق قرودهم) .
(٤٠٢) في ع (شمر) وفي ك ، و ا (معشر) والتصويب من حلية الاولياء ٢٨٩/٧ .
(٤٠٣) ورد البيت في امالي المرتضى ٢٢١/٢ بدونعزو ، وفيه (رجوت اهلي) .

عسى الكربَ الذي أمسَيتَ فيه يكونَ وراءَه فرجٌ قريبُ[٤٠٤]

فنظر فاذا سفينة أقبلت ، فلوّح لهم فأتوهفحملوه فاصاب خيراً كثيراً .

كان شريح القاضي لا يقبل شهادة من ركبالبحر ويقول : من لا يكون أميناً على نفسه لا يكون أميناً على غيره .

وفي الحديث : لا تركب البحر الاّ حاجاً ،او معتمراً ، أو غازياً في سبيل الله ، فانّ تحت البحر ناراً ، وتحت النار بحراً .

وأراد عمر بن الخطاب يغزو قوماً على البحر،فكتب اليه عمرو بن العاص وهو عامله على مصر : يا أمير المؤمنين ان البحر خلق عظيم يركبه خلقصغير ، دود على عود . فقال عمر : لا يسألني الله عن أحد أحمله فيه .

امتنع حكيم من ركوب البحر فقيل له في ذلكفقال : اني لأكره ان اركب مالا املك عنانه ، ولا أضبط زمامه .

قيل لبعض التجار : ما أعجب ما رأيت فيالبحر ؟ قال : سلامتي منه .

فائدة : اذا اضطرب البحر يتكىء الراكبعلى جانبه الأيمن ويقول : اسكن بسكينة الله . وقرّ بقرار الله ، واهدأ باذن الله ، ولاحول ولاقوّةالا بالله .

وروى ابن عباس عن النبي صلّى الله عليهوسلم انّه قال : أمان لامتي من الغرق اذا هم ركبوا السفن أن يقولوا : بسم الله الملك « ماقدروا اللهحقّ قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويّات بيمينه سبحانه وتعالى عمّايشركون[٤٠٥] » . « بسم الله مجراها ومرساها انّ ربي لغفور رحيم[٤٠٦] » .

وما أحسن قول الوزير الكاتب أبي بكر بنسعيد ابن القبطرنة البطليوسي[٤٠٧] من رقعة كتبها الى الوزير أبي الحسين بن سراج[٤٠٨] :

ولولا عوائق الزمان لطرت اليك بجناح ، أولامتطيت أعناق الرياح . الى أن قال : أو اتخذت السمكة سفينة ، وأقمت لها من النعائم ألواحاً ،وعطارد ملاّحاً ، وشرعتها بالغيوم ، وسمرتها

---

(٤٠٤) البيت لهدبة بن الخشرم المتوفى حوالي سنة(٥٠)هـ (الاعلام ٦٩/٩) وهو من قصيدة ـ اوردها القالي في اماليه ٧٢/١ ، وابن الشجري فيحماسته /٢٢٧ .

(٤٠٥) سورة الزمر /٦٧ ، واصل الآية (وما قدروا...) .

(٤٠٦) سورة هود /٤١ .

(٤٠٧) هو ابو بكر بن عبدالعزيز بن سعيد بن القبطرنة ، وفي قلائد العقيان /١٥٤ (القبطرنية) وفي المغرب في حلى المغرب ٣٦٧/١ (القبطورنة)وما اثبته المؤلف موافق لرواية الاحاطة في اخبار غرناطة ٥٢٨/١ .

(٤٠٨) هو ابو الحسين سراج بن عبدالملك بن سراج، توفي سنة ٥٠٨هـ (بغية الوعاة ٥٧٦/١ وقلائد العقيان /٢١٠ .

بالنجوم ، وجدفت بالفرقدين ، وحملت من آمالي فيها من كل زوجين اثنين ، واعتصمت بالقوّة والحول ، وخالفت كلّ من سبق عليه القول ،واستعذت من شيطان الكسل وهو رجيم ، وقلت « بسم الله مجراها ومرساها ان ربّي لغفور رحيم »وتلطّف من قال :

بلغتُ رشدي وما أدركتُ منكِ منىً ... وا حَيْرتي من بُلوغي قبلَ ادراكي[٤٠٩]
سفينةَ الصَّبرِ في بَحرِ الدموع رستْ ... فقال جَفْني باسمِ الله مَجراكِ

وما ألطف قول الشيخ الأديب اللابس منأثواب الفصاحة بردها القشيب جعفر بن محمد الخطّي[٤١٠] شاعر البحرين ، وهو المُبلغ منمحاسن الشعر الأماني ، وناهيك باللؤلؤ البحراني، من قصيدة :

وعبرةٍ لو دُعي نوحٌ ليركبَها ... بفُلكِه قال باسمِ الله مُجْريها[٤١١]

وما أحسن قوله بعد هذا البيت :

ومُقلةٍ أَلِفَتْ فرطَ السُّهاد فلَو ... رُدَّ الرُّقادُ عليها كادَ يُؤذِيها
ماذا على الطَّير اذ أبْلى الضَّنى جَسدي ... فخَفَّ لو حَملَتني في خَوافيها
إن يَقعد الطَّير عن حَملي لكم وسَرَتْ ... ريحُ الصَّبا فاطلبُوني في مَساريها
تَلقي لكم جَسداً لو أنَّ علَّتَه ... يُدعى المسيحُ لها ما كانَ يُبريها
لقد تَضاءَل حتَّى لو قَذفتَ به ... في مُقلةٍ ما أحسَّتهُ مآقِيها

قلت : هذا والله الشعر الخالص من الحشو ،الذي يأخذ بمجامع القلوب ، وتستشفّه الأسماع[٤١٢] . وكانت وفاة الشاعر المذكور سنةثمان وعشرين وألف بشيراز ، وله ديوان شعر أجاد فيه كلّ الاجادة ، وكان ذا بديهة قوية بارعاً مفلقاً ،مستحضراً لاشعار العرب وأخبارها .

ومن بديع قصائده التي تشهد له بقوة الملكة ،وقدرة التصرّف في المعاني والألفاظ : قصيدته الرائية المشهورة التي يصف فيها حاله وقد ضربتهسمكة تعرف بالسبيطيّة في وجهه فشجته وهو عابر من قرية تسمى (مرّي) ـ بكسر الميم ، وتشديدالراء المهملة ، وبعدها ياء مثناة من تحت ـ الى بحرين يقال لاحدهما (البلاد) ، والآخر (توبلي)ـ بضم التاء المثناة من فوق ، وبعد الواو باء موحدة مكسورة ، وبعدها لام وياء مثنّاة منتحت ـ وكان صحبته ابنه حسان ، ولا بأس بايرادها لحسنها وغرابتها ، على انّا لم نخرج عنذكر البحر ، وهي :

---

(٤٠٩) في ك (أدركت رشدي) .
(٤١٠) هو ابو البحر جعفر بن محمد بن حسن بنعلي بن ناصر الشهير بالخطّي من بني عبدالقيس ، شاعر فحل توفي سنة ١٠٢٨هـ (انوار الربيع٢/٢٥٧) .
(٤١١) في انوار الربيع (ليسلكها) مكان (ليركبها).
(٤١٢) يأتي في (ك) بعد كلمة الاسماع (وتحسوهالعقول للنشو) .

برَغم العَوالي والمهنَّـــدةِ البَتْـــرِ ... دمـاءٌ أراقَتْها سُـبَيْطِيَّةُ البَحرِ
ألا قد جَنى بحـرُ البـــلادِ وتُوبِلي ... عليَّ بما ضاقَت بـه ســاحةُ البـرِّ
فويلٌ بني شَـنٍّ بن أفْصَى وما الذي ... رمتْهم به أيدي الحوادثِ من وِتْرِ (٤١٣)
دمٌ لم يَرِقْ من عهدِ نوحٍ ولا جَرَى ... على حدِّ نـابٍ للعـدوِّ ولا ظُفْـرِ
تَحامَتْـه أطـرافُ القَنـا وتعرَّضت ... له الحوتُ يا بؤسَ الحوادثِ والدَّهرِ
لعمرُ أبي الأيَّـام إن بـــاءَ صَرْفُهـا ... بثارِ امرىءٍ من كلِّ صالحـةٍ مِئْـرِ
فلا غروَ فالأيَّـامُ بـين صرُوفِهـــا ... وبينَ ذوي الأخطار حَرْبٌ الى الحَشرِ
ألا فَابْلغ الحيَّـين بَـكراً وتَغلِبـاً ... فما الغَوثُ الاَّ عند تَغلِبَ أو بَـكرِ
أيَرضيكما انَّ امـرءاً مِن بَنيكمـــا ... وأيُّ امرىءٍ للخَـير يُدعى وللشَّـرِّ
يُراقُ على غـير الظُّبـى دمُ وجهـهِ ... ويَجري على غـير المَثَقَّفـةِ السُّـمرِ
وتَنبُو ثيُوبُ اللَّيث عنـه ويَنثَنـي ... أخو الحَوتِ عنه دامي الفَم والثَّغـرِ
ليَقضِ امروءٌ من قِصَّتي عجباً ومَنْ ... يَرد شَرْحَ هذا الحالَ يَنْظُر الى شِعري
أنا الرجلُ المشـهورُ مـا مِن محـلَّةٍ ... من الأرض الاَّ قـد تَخلَّلهـــا ذِكري
فان أمسِ في قُطـرٍ من الارض انَّ لي ... بريدَ اشـتهارٍ في مَناكبهـا يَسْـري
تولَّعَ بي صَرفُ القَضـاءِ ولم تكُنْ ... لتجري صُروفُ الدَّهرِ الاَّ على الحُرِّ
توجَّهتُ من مِرِّي ضُـحىً فكأنَّمـا ... توجَّهتَ من مِرِّي الى العَـلقَمِ المُرِّ
تلجَّجتُ خَوْرَ القَريتَينِ مُشـمِّراً ... وشِبلي معي والماءُ في أوَّلِ الجَزرِ (٤١٤)
فما هو الاَّ أن فُجِئْـتُ بطافِـــرٍ ... من الحوت في وجهي ولاضربَةِ النهرِ (٤١٥)
لقد شـقَّ يُمنى وَجْنتيَّ بنطحَـةٍ ... وقعتُ لها دامي المحيَّا عَلى قُطري (٤١٦)
فخيِّل لي انَّ السـماواتِ اُطبِقَت ... عليَّ وأبصرتُ الكـواكبَ في الظُّهرِ
وقمتُ كهَدْيٍ نَـدَّ من يَـد ذابـحٍ ... وقد بلغَتْ سكَّينُه ثَغْرةَ النَّحرِ (٤١٧)
يطوِّحُني نَـزفُ الدِّمـاءِ كأنَّنـي ... نزيفُ طِلاً مالَتْ به نشوةُ الخمرِ (٤١٨)

---

(٤١٣) بنوشن بن افصى بن عبدالقيس : قبيلةالشاعر .
(٤١٤) تلجّجت : ركبت اللجّة . الخور (بفتح فسكون) : الخليج من البحر ، ومصب الماء في البحر .
(٤١٥) الفهر : الحجر قدر ما يملأ الكفّ ، مذكرويؤنث .
(٤١٦) القطر (بالضم) : الناحية ، والجانب .
(٤١٧) الهدي : مايذبح ويهدى الى الحرم من النعم . ندّ : نفر ، وذهب على وجهه شارداً . في سلافة العصر /٥٣٠ (كجدي) مكان (كهدي) .
(٤١٨) النزيف : السكران . الطلا (بالكسر) واصلهالطلاء : ما بطبخ من عصير العنب ، ويطلق على الخمر .

نسن لامرىء لا يلبس الوشي قد غدا ... وراحَ موشّى الجيبِ بالنقطِ الحمرِ
ووافيتُ بيتي ما رآني امرؤٌ ولم ... يقلْ أوهذا جاءَ من ملتقى الكرِّ
فها هو قد أبقى بوجهي علامةً ... كما اعترضت في الطرسِ اعرابةُ الكسرِ
فان يمحُ شيئاً من محيّايَ أثرُها ... بمقدارِ أخذِ المحو من صفحةِ البدرِ
فلا غروَ فالبيضُ الرقاقُ أدلتها ... على العِتق ما لاحتْ به سمةُ الأثرِ
وقلْ بعدَ هذا للبيطيةِ افخري ... على سائرِ الشجعانِ بالفتكةِ البكرِ
وقلْ للظبى فيئي اليكِ عن الطلى ... وللسمر لا تهززنَ يوماً الى صدرِ(٤١٩)
فلو همَّ غيرُ الموت بي لتواثبتْ ... رجالٌ يخوضونَ الحمامَ الى نصري
فأمّا اذا ما عزَّ ذاكَ ولم أكنْ ... لأدركَ ثاري منه ما مُدَّ في عمري
فلستُ بمولّي الشعر ان لم أزجّه ... بكل شرودِ الذكرِ أعدى من العرِّ(٤٢٠)
أضرَّ على الأجفانِ من حادث العمى ... وأبلى على الآذانِ من عارضِ الوقرِ
يخافُ على من يركب البحرَ شرُّها ... وليسَ بمأمونٍ على راكب البرِّ(٤٢١)
تجوسُ خلالَ البحر تطفحُ تارةً ... وترسو رسوَّ الغيصِ في طلب الدرِ
تناولُ منه ما تغالى بسبحةٍ ... وتدركُ دون القعرِ مبتدر القعرِ
لعمرُ أبي الخطّيِّ ان باتَ ثارُهُ ... لدى غير كفءٍ وهو نادرةُ العصرِ
فثارُ عليٍّ باتَ عند ابنِ ملجمٍ ... وأعقبَهُ ثارُ الحسينِ لدى شمرِ

ولما وقف الشريف العلامة السيد ماجد بن هاشم البحراني(٤٢٢) رحمه الله تعالى على هذه القصيدة كتب مقرّظاً :

أجلت رائد الفطنة في معانيها ، وسرحت صاعد الفكرة في أركانها وميانيها ، فوجدتها قرّة في عين الابداع ، ومسرّة في قلب الاختراع ،والحقّ أحقّ بالاتباع . فالحمد لله على تجديد معالم الأدب بعد اندراسها ، وتقويم راية البلاغة بعد انتكاسها ، وردّ غرائب الفصاحة الى مسقط رأسها ، [وازالة وحشتها الى ايناسها](٤٢٣) .

ولنعد الى ما نحن بصدده : ولم نزل في أسر البحر ، وقد دارت علينا منه الدوائر ، واختلفت

---

(٤١٩) في سلافة العصر (مهلاً) مكان (فيئي) . الطلى (بالضم) : الرقاب .
(٤٢٠) العر (بفتح العين وتشديد الراء) : الجرب .
(٤٢١) في سلافة العصر (على سالك البرّ) .
(٤٢٢) هو السيد ماجد بن هاشم بن علي بن المرتضى بن علي بن ماجد الحسيني البحراني . توفي سنة ١٠٢٨هـ (انوار الربيع ١/١٥٥).
(٤٢٣) في الاصول (وازال وحشتها وايناسها)والتصويب من انوار البدرين /٢٩٢ .

تفاعيله ، فهو طويل وبسيط ومديد ووافر ، نكابدمن نحوه ما منلنا معه رفعه وخفضه ، ونلاقي من نصبه ما اخترنا عليه رفضه ، حتى رأينا العلاماتفرجونا الحياة بعد خشية الممات . والعلامات : حيّات ، أو حِيتان طوال رقاق كالحيّات في ألوانهاوحركاتها ، سمّيت بذلك لأنها علامات الوصول الى بلاد الهند ، وامارات النجاة من المهالك لطولهذا البحر وصعوبته[٤٢٤] . قال بعضهم : انّها التي أراد الله بقوله « وعلامات وبالنجم هم يهتدون[٤٢٥] » . ذكره الدميري في حياة الحيوان الكبرى[٤٢٦] .

فلما كان ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذيالقعدة الحرام شاهدنا الجبال والبرّ ، وأيقنا ان الله تعالى قد لطف بنا وبرّ . فبينا نحن في انتظارالفرج ، والخلاص من هذا البحر الذي حدّثنا عنه ولا حرج ، اذ عصفت الرياح وأخذت السفينة فيالارتياح ، وجاءنا الموج من كلّ مكان ، ونسينا ـ للانزعاج ـ ما كان ، فانخرقت السفينة ، وهاجالبحر دفينه ، فجعلت تفور ، كأنها التنور ، حتى بلغ الماء نصفها ، فشاهدنا من مواقع الهلاك ما لاتبلغ الحال وصفها ، ولولا ان « لكلّ أجل كتاب[٤٢٧] » لكنّا لا أثر ولا عين ، بل دخلنا تحتخبر كان ، واندرجنا في جواب أين ، فلم نزل نزف الماء ويكثر ، وهو يقوى ونحن نفتر ، حتى منّ اللهتعالى بريح كان بها النجاء ، وتحقّق الرجاء ، فطوينا تلك الشقّة الممتدّة ، وأغاثنا الله تعالىبالفرج بعد الشدّة ، ولله درّ القائل وهو ابراهيم ابن العباس[*] :

ولربّ نازلةٍ يَضيقُ بها الفتى ذَرْعاً وعند الله منها المخرجُ
كسفَتْ فلما استحكمَتْ حلقاتُها فرِجَتْ وكان يظنُّها لا تُفرَجُ[٤٢٨]

قال ابن خلكان : ما ردّدهما من نزلت بهنازلة الاّ وفرج عنه .

ولما كان بعد الزوال من يوم الجمعة المباركدخلنا البا ب، فسرنا في ماء عذب بين جبلين عليهما من الأنهار والأشجار والأزهار ما لا يمكن وصفهفلم نزل نسير بينهما الى آخر النهار . ولما جنحت الشمس للغروب وصلنا المرسى فحمدنا الله على ماأذكر وأنسى ، وأعلن لسان الحال بقول من قال :

يا ذا المعارجِ كم سألتك نعمةً فمنحتَها لي بالذّنوبِ الأوفَرِ[٤٢٩]
أيُّ العوارفِ منكَ أشكرُ فضلَهُ عجزَ المقلُّ وزادَ طَوْلُ المُكثِرِ
أكفايتي ما قد حذِرتُ وقوعَهُ أم ما كفيتَ من الذي لم أحْذَرِ[٤٣٠]

---

(٤٢٤) في ك (وصعوبته على السالك)
(٤٢٥) سورة النحل /١٦ .
(٤٢٦) ج ٢ ص /١٥٠ .
(٤٢٧) سورة الرعد /٣٨ .
(٤٢٨) في معجم الادباء ١/١٨٧ (وكنت اظنّها) ،وما اثبته المؤلف موافق لرواية وفيات الاعيان ١/٢٩ .
(٤٢٩) الذنوب (بالفتح) : الحظ والنصيب ،والدلو التي لها ذنب . تؤنث وتذكر .
(٤٣٠) في ك (آمنتني) مكان (اكفايتي) و (أم ما آمنت) مكان (أم ما كفيت) .

ثم نزلنا البندر وهو بنـدر (جيتـابور)ـ بجيم مكسورة وياء مثناة من تحت ، فتاء مثناة من فوق ، وبعد الألف باء موحّدة مضمومة ، فواوساكنة ، فراء مهملة ـ وكان وصولنا ابّان الربيع بالديار الهندية ، فألفيناه قد نشـر مطارفه وأبرزتالده وطارفه . لا تقع العين الاّ على رياض خضرة، وغياض يانعة نضرة ، والأرض تشكو والسـماءتشكي ، والروض يضـحك والغمـام يبـكي (للبحتري)[٤٣١] :

اذا أردتَ مـلأت العَـينَ من بـلدٍ ... مُستحسَنٍ وزمانٍ يُشبِهِ البَلَدا[٤٣٢]
يَمشي السـحابُ على أجبالها فِرقـاً ... ويُصبحُ الغيثُ في صَحرائِهـا بَرَدا
فليسَ تُبصرُ الاّ زاكيـاً خَضِـلاً ... أو يانِعـاً خَضِراً أو طائِـراً غَـرِدا

فأصبحنا نستنشق روائح الازهار ، ونختالفي رياض محفوفة بحياضٍ وأنهار ، وتتملّى بتلك الخمائل ، وتتنزّه ما بين غصن معتدل الى غصنمائل ، والصوادحتخطب على منـابر أغصانهـا ، وتبدي فنـون نغماتهـا على أفنانهـا . (لابنخفاجة)[٤٣٣] :

وقد جالَ من جَوْنِ الغمامَـةِ أدهَمٌ ... له البرقُ سَوطٌ والشَّـمالُ عِنـانُ
وضمَّخَ رَدْعُ الشمسِ فحرَ حَديقةٍ ... عليه من الطلِّ السَّـقيطِ جمانُ[٤٣٤]
ونمَّتْ بأسـرار الرِّياض خميلةٌ ... لها النَّورُ ثغرٌ والنسـيمُ لِسـانُ

وما ألطف قول ابن رشـيق(*) ، وقيـل :النامي[٤٣٥] :

خَليليَّ هَل لِلمُزنِ مقلةُ عاشـقٍ ... أم النّارُ في أحشـائِها وهيَ لا تَدري
سحابٌ حكَت ثَكلَى أصيبَت بواحدٍ ... فعاجَتْ له نحوَ الرِّيـاضِ على قَبرِ
تَرَقرَقَ دَمعاً في خُدودٍ تَوشَّحَتْ ... مطارِفَها بالبَرِّقِ طِرزاً من التِّبْـرِ
فَوَشيٌ بلا رَقمٍ ونَسْـجٌ بلا يَـدٍ ... ودمعٌ بلا عَـينٍ وضـحكٌ بلا ثَغْرِ

---

(٤٣١) هو أبو عبادة الوليد بن عبيـد البحتـريالطائي . توفي سنة ٢٨٤هـ (انوار الربيع ١/٣٨) . وردت كلمة البحتري في (ع) على الهامش ،ولا وجود لها في ك ، و ا .

(٤٣٢) للوقوف على الروايات المختلفة براجع ديوانالبحتري ٢/٧١٠ (المتن والهامش) .

(٤٣٣) هو أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن خفاجةالمتوفى سنة ٥٣٣هـ (انوار الربيـع ١/٢٦٥) . لم ترد كلمة (ابن خفاجة في ك ، و ا) .

(٤٣٤) الردع : الزعفران ، واثر الطيب في الجسـد .

(٤٣٥) هو أبو العباس احمد بن محمـد النامي‌الدارمي . توفي بحلب سنة ٣٩٩هـ وقيل غير ذلك (انوار الربيع ٥/١٢٥) . في ك (وما انمي‌قول النامي) ؛ والأبيات في يتيمة الدهر ١/٢٤٧ منسوبة للنامي ؛ وفي حلبة الكميت /٣٢٩للزاهي وقيل لابن رشيق ، وفي زهر الآداب ١/١٩٥ لأبي العباس الناشي . وفي تلك المصـادراختلافات في الرواية وعدد الأبيات . وما اثبتـه المؤلف موافق لرواية حلبة الكميت ، وعليهاعوّل جامع شعر ابن رشيق .

وأعجب لقول ابن نباتة[٤٣٦] :

قِفا فاعْجَبا من هامِـل الغَيْثِ انّـه ... لأعجبُ شيءٍ يُعجب العين والفكرا[٤٣٧]

يَمُدُّ عَلى الآفـاقِ بيضَ خُيُوطِـه ... فَيَنْسِـجُ منه لِلثَّرى حُلَّةً خَضْرا

فاقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام ، ثم انتقلنا الى بندر أعظم منه ، وكان هذا فرضة لذاك ، فسـرنا في الخور على الزورق بين ذينـك الجبـلين حتى وصلنا اليه ، وهو قرية لطيفة يقال لها (راجابور) ـ براء مهملة وبعد الألف جيم ثم الف فباء موحدة مضمومة فواو ساكنة فراء ـ ، وفيها عمارة حسنة لمصطفى خان أعظم وزراء عادل شاه ، ولم يكن في تلك القرية عمارة سواها فنزلنا بها . وهذه القرية من أعمال (كوكَن) ـ بكاف مضمومـة فواو ساكنة فكاف اخرى مفتوحة فنون ـ وهو صقع عظيم ليس في أرض الهند أكثر خراجاً منه لحسن ربيعه فان المطر يكون فيه ستة أشهر لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً بخلاف سائر أرض الهنـد ؛ فانّ مدة المطر فيها لا تزيد على أربعة أشهر .

ورأينا بهذا البندر أشياء لم نكن نراها من قبل منها : الطائر المعروف بالطاووس وتكنّيـه العرب أبا الوشي (وترخيمه)[٤٣٨] طويس ، وهو من الطير كالفرس عزاً وحسنا ، وفي طبعه العفّة وحب الزهو بنفسه والخيلاء ، والاعجاب بريشه ، وعقده لذنبه كالطاق لاسيما اذا كانت الأنثى ناظرة اليه . فاذا نظر في أعطافه ورأى ألوانه المختلفـة زهي بنفسه وتاه ، واذا نظر الى سـاقيه وَجَمَ لذلك وانكسر نشاطه وزهوه فصاح صياح العويل لحزنه ، وذلك لدقّة ساقيه وتنوء عرقوبيه .

وذكر الحكماء انّه يعيش خمساً وعشـرين سنة وهو أقصى عمره ، ويبيض في السـنة مرّة واحدة اثنتي عشرة بيضة في ثلاثة أيام ، ويحضنها ثلاثين يوماً ويفرخ ، ولكن لا تستكمل قوى أفراخه في أقل من ثلاث سنين[٤٣٩] ويلقي ريشه مع سقوط ورق الشجر ، وينبت مع ابتداء نبات الورق .

وزعم قوم انّ الذكر تدمع عينه فتقف الدمعة بين أجفانه فتأتي الانثى فتطعمها فتلقـح من تلك الدمعة . وليس كذلك فانّ سـفاده يشاهده كثير ممن يعتني به .

وهو مع حسنه يتشاءم به ، وقلّما اتخذ في دار الاّ وباد أهلها ، وقد جرّب ذلك وهذا عـلة التشاؤم به[٤٤٠] . وما ألطف قول الثعالبي صاحب اليتيمة :

---

(٤٣٦) هو الشـيخ جمال الدين ابن نباتة المصـري المتوفى سنة ٧٦٨هـ (أنوار الربيع ١/٤٥) .

(٤٣٧) في الديوان (لأحسن شيء) .

(٤٣٨) (ترخيمه) كذا ورد في الاصول ، والذي في حياة الحيوان ٢/٨٨ (تصغيره) . وجاء في لسـان العرب (واراه : تصغير طاوس مرخماً) .

(٤٣٩) في ك (في اقل من سـنة) وفي المعجم الزوولوجي ٤/١٥٤ (ويتم نمو الذكر منه في السنة الثالثة).

(٤٤٠) لي صديق مولع بتربية الطواويس منذ زمن بعيد ، ولا يزال هو وعائلته بخير والحمدلله . ويخيّل لي ان التشاؤم من الطاووس تحريف للمثل القائل (انام من طويس) . وطويس هذا : مخنث من اهل المدينة يقال انه ولد يوم وفاة النبي(ص) وفطم يوم وفاة أبي بكر ، وختن يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل علي ، فتشاءم الناس به .

طالعٌ يومي غـير مَنحوسِ فسقّني يا طاردَ البُـوسِ
خمراً كعين الدّيك في روضةٍ كأنّهـا حُـلّةُ طاوُسِ

فائدة حكيمة : أفاد صاحب الاشراق[٤٤١] :ان اختلاف ألوان رياش الطاووس (مثـلا)[٤٤٢] مستندة الى رب نوع الطاووس ، واذا كان لـكل نوع رب ـ جوهراً أو عرضاً ـ لم يتصور ذلك ولم يكن ذلك كذلك ، بل الأشبه الأقرب باشراقناأن يكون على وجه آخر ، ولعـلّه ان الأسـباب الفلكية أوجبت أن يكون الطاووس (بمزاجـهومادته تحت تدبيركواكب مختلفة، فالطاووس)[٤٤٣] لعلاقة تدبير الكواكب ايّاه يستفيض من أربابأنواع[٤٤٤] مختلفة ، وهي أرباب أنواع الجواهر والأعراض اسـتفاضات مختلفة بوجوه مختلفـةمناسبة لائقة بتدبير الكواكب المدبـرة بوجـوه مخصوصة لمناسبة خاصة ، خفيّة الكُميّة ، جليّةالأنيّة . انتهى ، فتدبّر والله المدبر[٤٤٥] .

فائدة : السيد محمـد الطاووس (بالألفواللام) بن اسـحاق بن الحسـن بن محمد بن داود[٤٤٦] ــ صاحب عمل النصف من رجب ـ بنالحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي عليهم السلام ؛ لقّب بالطاووس لحسن صورتهوحماشة[٤٤٧] قدميه . وهو الجد الثامن للسـيد علي صاحب مهج الدعوات وغيره[٤٤٨] وبه يتصلنسبه هكذا ، فهو علي بن موسـى بن جعفـر بن محمد (بن محمد)[٤٤٩] بن أحمد بن محمـد بنأحمد بن محمد ، وهو الطاووس بن اسـحاق ، وكان اسحاق يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة ،خمسـمائة عن نفسه وخمسمائة عن والده ، وهو أول من ولي النقابة بسوراء[٤٥٠] .

وطاووس بن كيسان فقيه الحرم . كان اسمهذكوان فلقّب طاووس ـ بدون أداة التعريف ـ لأنه كان طاووس القرّاء والعلمـاء ، وقيل : انّطاووساً اسمه ، وله ترجمة في ابن خلكان[٤٥١] . ورأينا في هذا البندر من الباغي الخضر ما لا يحصى،واحدتها بَبْبَغا (بثلاثباآت موحدات، أولاهنّ وثالثتهنّ مفتوحتان ، والثانية سـاكنة ، وبالغينالمعجمة) وهي هذا الطائر المعروف بالدرة (بدال

---

(٤٤١) لعله يريد صاحب كتاب حكمة الاشـراقيحيى بن حبش السـهروردي المقتول بحلب سـنة ٥٨٧هـ (كشف الظنون ١/٦٨٤) .
(٤٤٢) لا وجود لهذه الكلمة في (ك) .
(٤٤٣) سقطت هذه الجملة من ك . وفي ا (تدوير امكان (تدبير) .
(٤٤٤) ارباب الانواع : هي طبائع الانواع ومدبراتهاباصطلاحهم . انظر كتاب حكمة الاشراق /٢٠٠هـ .
(٤٤٥) يأتي في ك بعد قوله : انتهى (فتدبر وانظرخطبة امير المؤمنين عليه السلام في الطاووس ووصفه يتضح الامر) .
(٤٤٦) في الكنى والالقاب ٢/٤٠٤ (محمد بن سليمان بن داود) .
(٤٤٧) حمشت الساق : دقّت .
(٤٤٨) توفي السيد علي ابن طاووس سنة ٦٦٤هـ(معجم المؤلفين ٧/٢٤٨) .
(٤٤٩) في عمدة الطالب /١٥٦ ، ومعجم المؤلفين(جعفر بن محمد بن احمد) .
(٤٥٠) سوراء (بالضم والمد) : موضع الى جنببغداد ، وقيل بغداد نفسها ؛ وسورا (بالقصر) : مدينة تحت الحلة لها نهر ينسب اليها ، وكورة قريبة من الفرات .
(٤٥١) وفيات الاعيان ٢/١٩٤ .

مهملة مضمومة) كذا ضبطها في العباب[٤٥٢] ،وضبطها السمعاني[٤٥٣] في الأنساب بباءين (بفتح الأولى واسكان الثانية) وقال : لقّب بها أبو الفرج الشاعر[٤٥٤] لفصاحته ، وقال القضاعي[٤٥٥] : للثغة كانت في لسانه .

قال الشيخ داود الضرير الأنطاكي في تذكرته : وهي ألوان ، أجوده الأخضر ، فالأحمر ، فالأصفر . وأردؤه الأبيض وهو أكبرها ، يجلب من الصين ، وهو طير لطيف الشكل حادّ المخلب ، فان مال فمه الى حمرة فهو أسرع تعلماً للكلام ،ولسانه كلسان الانسان فيه مقاطع الحروف ، ويخاف فيتعلّم اذا هدّد . ومتى غذي الفستق ،و [الأرز][٤٥٦] والقرطم[٤٥٧] أسرع تعليمه ، وهو أشد الطيور تضرّراً بالبرد ، واذا خرج من بلاده لم تزدوج ذكوره بانائه ، ولم يبض . انتهى .

ويقال انه أهدي لمعزّ الدولة ابن بويه[٤٥٨] في أيامه درّة بيضاء ، سوداء المنقار والرجلين ، على رأسها ذؤابة .

والأخضر هو الموجود الآن ، وهو يتناول ماكوله برجله كما يتناول الانسان الشيء بيده . قال أبو اسحاق الصابي[٤٥٩] في وصفها وتخلّص الى مدح أبي الفرج الببغا :

أنعتُها صبيحةً مليحةً ... ناطقةً باللغةِ الفصيحةْ[٤٦٠]

عُدِّتْ من الأطيارِ واللسانْ ... يوهني بأنها انسانْ

تُنهي الى صاحبها الأخبارا ... وتكشف الأستارَ والأسرارا

سكتاءَ الا أنها سميعهْ ... تُعيدُ ما تسمعهُ طبيعهْ

زارتكَ من بلادها البعيده ... واستوطنتْ عندك كالقعيده

ضيف قِراهُ الجوزُ والأرزْ ... والضيفُ في اتيانِه يُعزّ

---

(٤٥٢) العباب الزاخر : كتاب في اللغة للامام الصغاني (الحسن بن محمد) المتوفى سنة ٦٥٠هـ (كشف الظنون ٢/١١٢٢ ؛ ومعجم المؤلفين ٣/٢٧٩) .

(٤٥٣) هو ابو سعيد عبدالكريم بن محمد المروزي السمعاني . توفي سنة ٥٦٢هـ (طبقات الشافعية ٧/١٨٠) .

(٤٥٤) هو ابو الفرج عبدالواحد بن نصر المخزومي المعروف بالببغا . توفي سنة ٣٩٨هـ (انوار الربيع ٣/٢٥٣) .

(٤٥٥) لعله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي الشافعي الفقيه المؤرخ . توفى سنة ٤٥٤هـ (معجم المؤلفين ١٠/٤٢) .

(٤٥٦) في ع ، و : (اللازورد) وفي ك (الانزروت)والتصويب من البيت السادس من ابيات الصابي الآتية .

(٤٥٧) القرطم (بالكسر) : حب العصفر ، والقرطمان : العرطمان .

(٤٥٨) هو معز الدولة احمد بن بويه بن فناخسرو .توفي سنة ٣٥٦هـ (الاعلام ١/١٠١) .

(٤٥٩) هو ابو اسحاق ابراهيم بن هلال الحراني الصابي المتوفى سنة ٣٨٤هـ (انوار الربيع ١/٢٤٠).

(٤٦٠) القصيدة وجوابها في يتيمة الدهر ١/٢٦٩ ،وحياة الحيوان ١/١١٢ وفي رواية بعض الابيات اختلاف .

تراهُ في مِنقارِها الخَلوقي ... كلؤلؤٍ يُلقطُ بالعَقيق[٤٦١]

تنظرُ من عَينينِ كالفُصَّينِ ... في النّورِ والظُّلمة بصّاصين

تَميسُ في حُلّتها الخَضراوِ ... مثلَ الفتاةِ الغادَةِ العَذراء

خَريدةٌ خُدورُها الأقفاصُ ... ليسَ لها من حَبْسها خلاصُ

تَحبسُها وما لَها من ذَنبِ ... وانّما الحبسُ لفرطِ الحُبِّ

تلكَ التي قَلبي بها مَشغوف ... كَنَيْتُ عنها واسمُها معروف

يُشرِكُ فيها شاعرُ الزّمانِ ... الكاتب المعروفُ بالبَيانِ

ذلكَ عبدالواحدِ بنُ نَصرِ ... يَقيهِ ربّي حادثاتِ الدّهرِ

فأجابه أبو الفرج بقوله :

مَن مُنصِفي من مُحْكَمِ الكُتّاب ... شَمسِ العُلوم قَمرِ الآدابِ

أمسَى لأصْنافِ العُلوم مُحْرِزا ... وسامَ أن يَلحقَ لمّا برّزا[٤٦٢]

وهل يُجاري السابقَ المقصّرُ ... أمْ هل يُباري المُدرِكَ المُقَصّرُ

الى أن قال في وصفها :

ذاتِ شَغرٍ تحسَبُه ياقوتا ... لا تَرتضي غيرَ الأرُزِّ قوتا[٤٦٣]

كأنّما الحبّةُ في مِنقارِها ... حَبابَةٌ تَطفو على عُقارِها

ومن محاسن شعر أبي الفرج المذكور :

ومُهفهفٍ لمّا اكتسَتْ وَجَناتُه ... خِلَعَ المَلاحةِ طُرِّزَتْ بعِذارِه[٤٦٤]

لمّا انتصَرتُ على أليمِ جَفائِه ... بالقَلبِ كانَ القلبُ من أنصارِه

كملَتْ محاسنُ وجهِهِ فكأنّما اقْـ ... ـتَبَسَ الهلالُ النّورَ من أنوارِهِ

واذا ألحَّ القلبُ في هِجرانِه ... قال الهَوى لا بدَّ منه فَدارِه

وله في التشبيه وقد أبدع :

وكأنّما نُقِشَتْ حَوافرُ خيلِهِ ... للنّاظرين أهلّةً في الجَلْمَدِ

وكأنَّ طرفَ الشّمسِ مَطْروفٌ وقد ... جعلَ الغُبارَ له مكانَ الاثْمِدِ[٤٦٥]

---

(٤٦١) الخلوقي : نسبة الى الخلوق (بالفتح) وهوخليط من الطيب اعظم اجزائه من الزعفران ، وقيل هو الزعفران نفسه .

(٤٦٢) سام : اراد ، طلب ، قصد وابتغى .

(٤٦٣) الشغى : اختلاف نبتة الاسنان بالطول والقصر ، والدخول والخروج .

(٤٦٤) الابيات في يتيمة الدهر ١/٢٧٤ وفي روايةالبيتين الاول والثاني اختلاف طفيف .

(٤٦٥) عين مطروفة : اصابتها طرفة ، وهي نقطةحمراء تحدث في العين .

قال القاضي ابن خلكان في ترجمة الفضل بن الربيع : ان أحمد بن يوسف الكاتب كتب الى بعض اخوانه وقد ماتت له بيغا وله أخ كثير التخلف يسمّى عبدالحميد :

أنتَ تَبقى ونحنُ طرّاً فِداكا ... أحسنَ اللهُ ذو الجَلالِ عَزاكا
فلقد جلَّ خطبٌ دهرٍ أتاكا ... بمقاديرَ أتلفَتْ بيَّغاكا
عجباً للمنُونِ كيفَ أتَتْها ... وتخطَّتْ عبدالحميد أخاكا
كانَ عبدالحميدِ أجملَ للمو ... تِ من البيَّغا وأولى بذاكا[٤٦٦]
شملَتْنا المصيبتانِ جميعاً ... فقدُنا هذه ورُؤيةُ ذاكا

قال الزمخشري : انّ البيغا تقول : ويل لمن كانت الدنيا همته[٤٦٧] .

غريبة : حكى الشيخ كمال الدين الأدفوي في كتابه الطالع السعيد في ترجمة محمد بن محمد النصيبيني القوصي الفاضل المحدث الاديب : انّه اخبره أنّه [حضر][٤٦٨] مرة عند عزالدين ابن البصراوي الحاجب بقوص ، وكان له مجلس مجتمع فيه الرؤساء والفضلاء والأدباء ، فحضر الشيخ علي الحريري وحكى : انه رأى درّة[٤٦٩] تقرأ سورة يس ، فقال القوصي : وكان غراب يقرأ سورة السجدة ، فاذا وصل الى محلّ السجود سجد فيقول : سجد لك سوادي ، واطمأنّ بك فؤادي . انتهى .

وأغرب القزويني في قوله : ان البيّغا لاتشرب الماء وهو غلط البتة ، وأكثر قوتها ببلادها الموز ، وقصب السكر ، والله أعلم .

ومما رأيناه بهذا البندر من الحيوانات الغريبة : سنانير الزباد ، الواحد منها كالسنّور الأهلي لكنه أطول منه جثة وذنباً ، ولونه الى السواد أميل ، والزباد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللزج ، ذفر الرائحة ، يخالطه طيب حسن يوجد في ابطيه ، وفي باطن أفخاذه ، وباطن ذنبه ، وحوالي دبره . ولم يبرح معه جماعة يلاعبونه ويحرّكونه حتى يعرق فيسيل الزباد ، فتمد له ملاعق الفضة ويؤخذ[٤٧٠] ويسمّى هذا السنّور : الرباح (بفتح الراء المهملة والباء الموحّدة المخفّفة) . وللجوهري هنا وهم مشهور[٤٧١] :

---

(٤٦٦) في وفيات الأعيان ٣/٢٠٨ (أصلح) مكان (أجمل) .
(٤٦٧) الهمة ـ هنا ـ : الهوى ، او ان الكلمة محرفة عن (همّه) .
(٤٦٨) زيادة من الطالع السعيد /٦٢١ ، وحياة الحيوان ١/٣٣٦ .
(٤٦٩) الدرة (بالضم وتشديد الراء) : البيغا .
(٤٧٠) في كتاب الحيوان للجاحظ ٥/٣٠٤ (الهامش) وصف اوسع لسنور الزباد ، والطيب الذي يستخرج منه .
(٤٧١) الوهم المنسوب للجوهري هو ، قال صاحب القاموس ـ مادة ربح ـ (والرباحي جنس من الكافور . وقول الجوهري : الرباح : دويبة يجلب منها الكافور خلف . واصلح في بعض النسخ وكتب (بلد) بدل (دويبة) وكلاهما غلط ، لأن الكافور صمغ شجر ...) .

قال الدميري : والزباد طاهر ، لـكن قـال الماوردي ، والروياني : ان الزباد لبن سـنّور في البحر يحلب ، كالمسك ريحاً واللبن بياضا • يستعمله أهل البحر طيباً ، وهذا يقتضي أن يكون حلالاً ، فان قلنا بنجاسة لبن ما لا يؤكل ففي هذا وجهان •قال النووي : والصواب طهارته وصحّة بيعـه • لانّ الصحيح جميع حيوان البحر طاهر يحلّ أكله ولبنه ، هذا بعد تسـليم انه حيـوان بحـري ، والصواب انه برّي • فعلى هذا هو طاهر ، لكنّهم قالوا : انه يغلب فيه اختلاطه بما تساقط من شعره ، فينبغي ان يحترز عما فيه شيء من شعره لأنّ الأصح نجاسة شعر ما لا يؤكل اذا انفصل عنه في حياتـه غير الآدمي • انتهى من حياة الحيوان الكبرى[٤٧٢].

قال الشيخ داود في التذكرة : (أرفع أنواع الزباد)[٤٧٣] : (الشـطري)[٤٧٤] الأسود الضارب الى حمرة ولمعة • قلت : والشطري : منـسوب الى شـطر من أعمال الهند • قال : وأردؤه الأبيض • ويعرف الجيّد منه بوجود طيور حمر فيه كالذباب الصغير ، واذا دلكت به اليد لم تدبق ، وان غسل بالماء لم تزل رائحته • قال : وهو حار في الثانيـة رطب في الأولى ، أو معتدل • اذا شرب مع الشراب أذهب الغشى[٤٧٥] والخفقان ، وأوجاع فم المعدة •ومع الزعفران يزيل الوسواس والجنون والتوحّش والماليخوليا ، ويفرّح تفريحاً عظيمـاً ، ، ويقوّي الذهن والحواس ، ويسهّل الولادة ، مجرّب • وشربته الى دانق ، وأخطأ من جعله درهماً • انتهى باختصار كثير •

ورأينا بهذا البندر أشجاراً لم نكن نراها •منها : شجر الفلفل وهو أشبه ما يكون بشـجر الدجر[٤٧٦] يلتفّ على شـجرة أخرى ، وقـول الأطباء ممن لم يره انّه كشجر الرمّـان خلف • والفلفل فيه كعناقيد العنب وهو أخضر ، فاذا يبس اسودّ • والفلفل الأبيض شـجر برأسه قطعاً • واختلفت أقوال الأطباء فيهما في كون كليهما من شجرة واحدة ، أو هما غيران ؟ والأصح ما ذكرناه عن عيان • وخواصهما مذكورة في كتب الطبّ وكلاهما حار • وحكماء الهند تقول : انه بـارد ويكثرون استعماله في الحمّى فينفعهم •

ومنها شجر النارجيل ، وهو كالنخل الاّ انّ جذعه في الغالب أمتن من جذع النخل ، وسـعفه كسعفه ، غير ان سعف النخل أصلب منه وأقوى شوكة • وقول الشيخ داود في التذكرة : انّ وجه الجريدة فيه الى أسفل غير صحيح ، بل جريدته كجريدة النخل ، والآفة من الراوي • وبالغ صاحب القاموس في وصف طولها ولينها فقال : النارجيل :جوز الهند واحدتها بهاء ، وقد يهمز • ونخلتـه طويلة تميد بمرتقيها حتى تدنيه من الأرض ليناً •ويكون في القنو الكريم منها (ثلاث عشرة)[٤٧٧] نارجيلة ، ولها لبن يسـمّى الاطراق ، وخاصّيّة الزنخ منها : اسهال الديدان ، والطريّ : باهيّ

(٤٧٢) حياة الحيوان ٢/٣٧ .
(٤٧٣) سقطت هذه الجملة من (ك) .
(٤٧٤) في ك (السمطري) بالسين المهملة .
(٤٧٥) الغشى ، كالغثيان : جيشان النفس .
(٤٧٦) الدجر (مثلثة) : اللوبياء .
(٤٧٧) كذا في الاصول ؛ والذي في القاموس (ثلاثون) .

جداً . انتهى . وشجره يثمر بعد سبع سنين ،ويبقى مائة عام وأكثر ، وهو يزرع ثمراً لا قضباً ، وله منافع كثيرة مذكورة في مظانها .

ومنها شجر الفوفل وهو طويل جداً حسن الساق معتدل القامة لا يرى فيه اعوجاج أصلاً ، وساقه كلّه شديد الخضرة من أسفله الى أعلاه ،ولا يكاد يعلوه المرتقي الاّ بجهد شديد للينه ، وهو شبيه بالنخل وشجر النارجيل ، الاّ انّ هذارفيع الساق جداً بالنسبة اليهما ، وهو يحمل كبائس فيها الفوفل داخل قشر صلب ، عليه طبقات ليفيّة كالنارجيل ، ولا يستعمل في جميع الأرض ، ولا يحمل الى سائر الأقطار (الاّ فوفل هذا الصقع المسمى بكوكن)[٤٧٨] وان وجد في سائر بلاد الهند الاّ انه رديء جداً لا يستعمل ، وانّما يتخذشجره في البساتين للنظر الى ساقه وحسن قامته .

ومنها : شجر الأنبا ، وهو العنب المعروف الآن (بفتح العين المهملة وسكون النون) . وفي القاموس : الأنبج (كأحمد) وتكسر باؤه : ثمرةشجرة هندية (معرّب أنب)[٤٧٩] وهو شجر عظام ، وكنّا رأينا ثمره باليمن ولم نر شجره ،وهو من محاسن ثمر الهند ، يغذي غذاء حسناً ، ويتفاوت في بلاده حسناً ورداءة . قال الشيخ فيالتذكرة : وهو حار في الثانية يابس في الثالثة ، وقيل النضج بارد في الأولى . يفتح الشهوة انْحَلّل ، ويقطع الطحال ، ويفتّت الحصى . والمربّى يمنع الخفقان والصداع البارد ، ونواهيبيّض الأسنان ، ويطيّب رائحة الفم ، وهو كيف كان يغسل الأخلاط اللزجة ، ويذهب البواسير ،ورماد شجره يحبس الدم ، وقيل : انّ الأخضر منه يمنع الشيب ، وهو يضعف الكبد ، ويصلحهالزبيب . انتهى . وانّما تعرّضنا لذلك لقلّة من نبّه عليه .

وكتب اليّ سيدي الوالد دام مجده ، وكانقد أهدى اليّ منه شيئاً :

هو العَنْبُ لوناً كالتُفّار ولذّةً ... كطَعْم العَذارى والرّحيقِ المصَفّقِ
فكُلْهُ هَنيئاً يا سُلالَة هاشمٍ ... ولا زلتَ بالتّوفيقِ خيرَ مُوَفّقِ

فأجبته بقولي :

أتانا لذيذُ العَنْبِ رَطباً ويانِعاً ... بطَعْمٍ كطعمِ الخُسْرَويّ المعتّقِ[٤٨٠]
ونظمٌ كنظمِ الدّرّ يزهو على الدمى ... ذكيٌّ متى يُتلى على السّمع يَعْبَقِ
فشرّدَ همّاً بين جَنبيّ كامِناً ... وطابَ به عيشُ الزّمان المُرَنّقِ[٤٨١]

---

(٤٧٨) في ك ، و ا (إلا فوفل الهند من الصقع المسمىبكوكن) .

(٤٧٩) تسمى بالعراق (عنبه) وفي مصر (منجه)او (منجو) . براجع القاموس ، ولسان العرب ، ومعجم متن اللغة مادة (ن ب ج) و (ا ن ب) و (ع ن ب) .

(٤٨٠) الخسروي : صنف من الشراب .

(٤٨١) المرنّق : الكدر : وقد جرّه بالوصفيةللزمان ، ويجوز اعتباره صفة للعيش ويكون جره بالمجاورة .

وأهدى الوالد الى السيد الجليل الفاضل العلامة محمد بن عبدالحسين البحراني[٤٨٢] عنباً فكتب اليه السيد قصيدة يصف فيها العنب أولها :

أحمدٌ من أصْمَدَ كعبَ أحمدِ ... في ذِرْوَةِ المجدِ وهامِ السُّؤددِ
بالعِمِ والفَضلِ وطيبِ المِحْتَدِ ... وهمَّةٍ تدوسُ فَرْقَ الفَرقَدِ
السيِّدِ النَّدبِ الجَوادِ الأوحَدِ ... من لا يُحاطُ وصفُه بالعَددِ
همَّتُه مصروفةٌ في مَدَدي ... ولم تفارِقْ يدُه قطُّ يَدي
فمن جَزيلِ فَضلِه المجدَّدِ ... ولُطفِه بعَبْدِه محمَّدِ
بليلةٍ بها الزمانُ مُسعِدي ... قد أسفَرتْ عن صُبحِ يَومِ الأحدِ
إهداؤهُ العَنْبَ الذي مَذاقُه ... ألذُّ من وَصْلِ الحِسانِ الخُرَّدِ
أحلى من السُّكَّرِ في الطَّعمِ وإن ... نَستَشهِدِ الشَّهدَ بذاكَ يَشْهدِ
لو قلتُ لم تَحوِ الجِنانُ مثلَه ... طَعماً ولوناً وشَذاً لم أبْعِدِ[٤٨٣]
قد كادَ لُطفاً أن يَذوبَ عندما ... تَلمَحُه العينُ كذوبِ البَرَدِ
من نالَ شَيئاً منه في زَمانِه ... كأنَّما نالَ حياةَ الأبَدِ
كأنَّما الشمسُ اذا ما طَلعَتْ ... قد كُسِيَتْ من لونِه المُوَرَّدِ
تَرى اذا رأيتَه شمسَ الضُّحى ... بازِغةً في كُرَةِ الزَّبَرْجَدِ
قد جاءَنا من دَوحَةِ الجُنود التي ... أثمارُها ما بَرِحَتْ كالعَسْجَدِ[٤٨٤]

وهي قصيدة طويلة كلّها على هذا النمط[٤٨٥] اقتصرنا منها على ما تعلّق به الغرض .

ومن محاسن شعر السيد المذكور ما كتبه الى الوالد من شيراز المحروسة بعد فراقه له سنة سبعين وألف :

لولا مَضايقُ أحوالٍ وقعتُ بها ... لم تَبقِ لي سَبَداً يوماً ولا لَبَدا[٤٨٦]
لَما جَرَى بشَكاةِ الدَّهرِ لي قَلمٌ ... ولا جمعتُ عليه اصبَعاً أبَدا
والحرُّ مازالَت الأقدار تُقحِمُه ... شدائِدَ الدَّهرِ حتى يَفقِدَ الجَلَدا

---

(٤٨٢) هو ابو عبدالله محمد بن عبدالحسين بن ابراهيم بن ابي شبانة الحسيني البحراني . كان حياً سنة ١٠٧٠هـ (سلافة العصر /٤٩٧؛ واعيان الشيعة ٤٥/٢٨٤) واسمه فيهما (محمد ابن عبدالله بن ابراهيم) وما اثبته المؤلف مطابق لما جاء في انوار البدرين /٩٥ .

(٤٨٣) الجنان ، جمع الجنة ، ويريد مفهومها اللغوي : الحديقة ذات الشجر . في ك (لو قلت ما حوى الزمان مثله) ؛ وفي ا (لم يحو الزمان) .

(٤٨٤) في سلافة العصر (ما برحت اثمارها) .

(٤٨٥) القصيدة كلها في سلافة العصر .

(٤٨٦) السبد : القليل من الشعر . اللبد : الصوف؛ وفي المثل (ما له سبد ولا لبد) اي لا شيء عنده .

ما زلتُ في مَوقِفِ الاخلاصِ منتصباً وفي مُجاهَدةِ الأعْداءِ مُجتَهِدا
وكنتُ عندَكَ في قُربٍ ومَنزِلةٍ فليتَ شِعري ما بعدَ البِعادِ بَدا
لازالَ عمرُكَ بالتأييدِ متَّصِلاً وعَضُدُ عزِّكَ بالتأييدِ مُمْتَضِدا

ومن الأشجار التي رأيناها بالهند شجرالتانبول ، ويقال له : التامول ، والتنبل • وهو ضرب من اليقطين كاللوبيا ينصب له قعيد فيرتقيفيه والاّ فيرتقي على الشجر ، وورقه كورق الأترج سبط رقيق فيه حرافة[٤٨٧] •

قال الشيخ في التذكرة : ورائحته قرنفلية ،وأجوده الرقيق السبط الطيّب الرائحة ، الشديد اذا قطع ، وهو حار في الثانية ، أو الأولى ، يابسفي أول الثالثة • يقوم مقام الخمر في كل ما لها من الأفعال النفسية والبدنية ، والهند تعتاض بهعنها • وهو يشدّ الحواس ، ويقوّي اللثة والمعدة والكبد . ويفتّ الحصى . ويدرّ الفضلات ، ويفتحالسدد ، ويجوّد الحفظ والفهم ، ويذهب النسيان ويحمّر الشفة والاسنان جداً اذا أطيل مضغه •والناس يستملونه بالجير[٤٨٨] والفوفل الى سبع ورقات كلّ مرة معها ربع درهم من كلّ منالمذكورين ، وقد يربّى فيعظم نفعه جداً ، ويزيد في العقل ، وينشّط ويذهب الكسل • والاكثارمنه يثقل الرأس ، ويصدع المحرور ، ويصلحه السكنجبين ، وشربته الى مثقال • انتهى بنصّه •

قلت : ولا يستعمله أهل الهند وغيرهم الاّبشيء من الكلس المبلول •

قال المسعودي : اذا مضغ هذا الورق بالنورةالمبلولة مع الفوفل شدّ اللثّة وقوى عمود الأسنان ، وطيّب النكهة ، وشهّى الطعام ، وبعثعلى الباه ، وحمّر الأسنان كاحمر ما يكون من حبّ الرمان ، وأحدث في النفس طرباً وأريحيّة ،وقوّى البدن وثارت من النكهة روائح طيبة • والهند تستقبح ــ خواصّها وعوامها ــ من أسنانهبيض ، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا • انتهى •

ومنها : قصب السكّر وهو بالهند نوعان ،أبيض وأسود ، فالأبيض الطف وأكثر ماء وأطول عقداً ، والأسود أصدق حلاوة • وكلاهما كقصبالذرة الاّ انّه أغلظ وأطول غالباً ، وليس له حبّ وانما يغرس قضباً • وظنّ بعض كبار الأطباءالمتقدمين انّ السكر رطوبات كالمنّ يسقط على هذا القصب فيجمع ويطبخ ، والحال انه عصارةالقصب •

قال في التذكرة[٤٨٩] : وأجوده المصري ، ثمالهندي الغليظ الغضّ الكثير الماء الصادق الحلاوة الطويل العقد • وهو حار في الأولى رطب في الثانيةيهضم ويفتح السدد ، ويلطف الدم ، وهو أشدّ ملاءمة من السكر •

---

(٤٨٧) الحرافة : طعم يحرق اللسان والفم .
(٤٨٨) الجير : الجص .
(٤٨٩) القول للشيخ داود الانطاكي .

وما أحلى قول الشيخ شهاب‌الدين ابن [أبي]حجلة[٤٩٠] :

أمسيتُ في قصَبِ الجَزيرة مُغرماً ... وبقلبهِ العسّال كالوَلهانِ
عيدانُه لولا حَلاوةُ مائِها ... شَبَّهتُه في الشكلِ كالمُرّانِ

ولابن حجّة قصيدة ملغزاً فيه منها قوله :

يَلتَذُّ قَبيلَ العَصرِ في‌الظُهرِ رشفَها ... وبَردُ لَماها من أليمِ الجَوى يَبْري
وفي أوّلِ الأعْرافِ تَرْوي من الظَّما ... وتضرمُ نيران الجوى وهي في العصر[٤٩١]

وأنشد الصفدي في الجزء الثامن من‌تذكرته[٤٩٢] لغيره ملغزاً فيه :

وذي هَيَفٍ كالغُصْنِ رَنَّحه الصِّبا ... يَفوقُ القَنا الخَطّي بغَيرِ سِنانِ[٤٩٣]
لهُ ولَدٌ كلُّ البَرايا تُحِبُّهُ ... وتَشْتاقُه انْ عَزَّ منه تَداني
وأعجبُ ما فيهِ يَرى النّاسُ أكلَهُ ... حلالاً قَبيلَ العَصرِ في رَمَضانِ

ورأينا بهذا البندر عيناً جارية وماؤها في غايةالحرارة ، يتصاعد منه الدخان ، فيقال : انها تمرّ على معدن الكبريت فيفيدها هذه الحرارة ، ولقدكنا نشمّ منها رائحة الكبريت .

وقد روي في الأثر كراهية استعمال هذا الماءالحار . روي عن جعفر الصادق عليه السلام انه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنالاستشفاء بالحميات ، وهي العيون الحارة التي تكون في الجبال التي توجد فيها روائح الكبريتفانّها من فوح جهنم . وعنه (ع) قال : انّ نوحاً (ع) لما كان في أيّام الطوفان دعا الميهفأجابته الاّ ماء الكبريت والماء المرّ . وامّا خاصيّة ماء الكبريت فانه يطلق أولاً ثم يعقل ،وهو يعقب الحكّة والجرب شرباً ، ويمنع منهما غسلاً ، ويقال : ان بجبل بالاندلس عينين احداهماباردة والاخرى حارة والمسافة بينهما شبر .

وأغرب من ذلك ما ذكره المسعودي عنصاحب المنطق : انّ ببعض المواضع عيوناً حامضة يستعمل ماؤها كما يستعمل الخلّ ، وذكر : انّالعلّة في هذه المياه انّ الأرضين المختلفة مثل مواضع الشب ، والمواضع النارية والرمادية اذاخالطت الماء أفادته طعوماً مختلفة على قدر اختلافها واعداد طعومها . انتهى .

ومن الغرائب ما رأيناه بهذا البندر ، وهيعين على قلّة جبل تنبع وتجري في السنة ثلاثة أيام

---

(٤٩٠) هو ابو العباس شهابالدين احمد بن يحيىالتلمساني المعروف بابن ابي حجلة (في الاصول ابن حجلة) . توفي سنة ٧٧٦هـ (انوار الربيع١/٣٨٧) .
(٤٩١) اول سورة الاعراف (المص) .
(٤٩٢) في كشف الظنون ١/٣٨٨ (هي في نحو ثلاثينمجلداً جمع فيها نوادر الاشعار ولطائف الادبيات نظماً ونثراً) .
(٤٩٣) اورد المؤلف البيتين الاول والثالث في كتابهانوار الربيع ٦/٤٢ منسوبين الى موفقالدين علي بن الجزار ، مع اختلاف في الرواية .

ثم تغور وتنقطع ، وكانت أول دخولنا البندرمنقطعة ، ثم بعد اقامتنا هنالك شهرين قيل : لبغ ماؤها فقصدناها للتفرج ، وقصدتها الهنودللعبادة • وكنا قصدناها قبل ذلك لما وصفت لنا فرأيناها غائرة ومجراها يابساً • وقد اتخذت الهنودعندها حياضاً ، ولما نبع الماء امتلات تلك الحياض ، وهو ماء عذب أبيض برّاق • ويحكى مثل هذاكثير الاّ ان للعيان موقعاً ليس للسماع •

فيقال : ان بالقرب من نهر أذربيجان نهراً يجريفيه الماء سنة ثم ينقطع ثماني سنين ثم يعود في التاسعة • وقيل انه ينعقد حجراً ثم يستعمل منهاللبّن ويبنى به •

ويقال : انّ في تلك الأرض بحيرة تجفّ فلايوجد فيها سمك ولا طين سبع سنين ، ثم يعود الماء والسمك والطين •

ويقال : انّ نهر صقلان يجري فيه الماء يوماًواحداً في كلّ اسبوع ، ثمّ ينقطع ستة أيّام . فسبحان الفعّال لما يريد •

فائدة : كلّ ماء يجري فهو نهر ، وحيثينبع فهو عين • وحيث يكون معظم الماء فهو بحر •

قال بطليموس : ان بهذا الربع المسكونمائتي نهر من خمسين فرسخاً الى ألف فرسخ وكلّها تبتدىء من الجبال وتنتهي الى البحار •

قيل : وليس في الأنهار أطول من نهر النيل ،وليس في العالم ما يسمى بحراً ونهراً سواه ، وقد كثرت أقاويل الناس فيه ، وأطالوا الكلام عليه ،وهو يظهر من تحت جبل القمر (بلفظ أحد النيرين) وانما سمي بذلك لما يظهر من تأثير القمر فيه عندزيادته ونقصانه من النور والظلام في البدر والمحاق •

ذكر انّ جماعة صعدوا هذا الجبل ليحيطواخبراً بمبدأ النيل ، فرأوا وراءه بحراً عجاجاً أسود كالليل يشقّه نهر أبيض كالنهار وهو النيل •

ويقال : انّ اناساً صعدوه فجعل كلّ واحدمنهم يضحك ويصفّق ، ويلقي نفسه الى ما وراء الجبل ، فرجع البقيّة خوفاً من أن يصيبهم مثلذلك ، فيقال : انّهم رأوا حجر الباهت ، وهو نوع من المغناطيس في لون المرقشيشا[٤٩٤] يتلألأ حسناً ،اذا رآه الانسان ضحك حتى يموت لا يمسك عنه البتّة ، ولا ان يستتر عنه بعد أن يكون قدرآه • ثمّ ان وقع عليه الفرفير[٤٩٥] ــ وهو طائر في شكل عصفور الشوك الذي يقال له السماني ،أسود له طوق أحمر وعيناه حمراوان ورجلاه كذلك ــ أبطل فعله لوقته ، ورآه الانسان من غيرضرر ، وهذا الحجر كثير الوجود بأرض تبت

---

(٤٩٤) المرقشيشا (دخيلة سريانية) فسروه بالحجرالصلد ، وهو اصناف منها الذهبي والفضي والنحاسي (معجم متن اللغة مادة م ر ق) .

(٤٩٥) في حياة الحيوان ٢/٢٢٢ : الفرفر (كهدهد) : من الطيور المائية صغير الجثة على قدر الحمام ، وهذا لا ينطبق على ما ذكره المؤلف .

(بضم التاء) . وزعموا انّ أهلها يرونه[٤٩٦] فلايضرهم كثير ضرر ، والغريب الطاريء على بلدهم كلما تقع عينه عليه يندفع في الضحك الدائم .فالفعل الاول وهو الضحك عند رؤيته لمناسبة وميل في هذه الخاصيّة ، والثاني وهو عدم الضحكعند وقوع ذلك الطائر عليه بسببٍ عارض .

ومن نوادر الحكايات ان المتوكل لما قبضعلى بختيشوع[٤٩٧] أصابوا له فيما أصابوا من أعلاق الجواهر ونفائس الطرائف حجراً في درجمختوم بختمه ، فدعوا غلامه فسألوه عن الحجر فقال : لا أخبركم أو يضمن لي أمير المؤمنين أنينفذني الى ملك الروم ، فليس لي بعد مولاي حاجة في العراق ، فحلف له المتوكل بأيمان مغلّظةانه يبذرقه[٤٩٨] الىما هناك ، فقال : هذا حجر اذا (قيس)[٤٩٩] به الشعر حلقه واستغنى فاعل ذلكعن النورة ، والحلق بالمواسي ، فدعوا برجل على ساعده شعر كثير فأمرّوا الحجر على شعره فلميبق على ساعده شعرة واحدة ، ففرح المتوكل ، وأمر بالخادم أن يبذرق الى بلاد الروم . فقالالخادم : امّا اذا وفى لي سيدي بالبذرقة فانّ هذا الحجر يحتاج أن يطرح كل سنة عند طلوعالشعرى العبور[٥٠٠] في دم تيس حار . فبذرقوا بالخادم ، فلما وصل ، وطلعت الشعرى العبوروقد الهجير طرحوه في الدم فبطل عمله .

فكان حلق هذا الحجر الشعر من العضوالذي عليه ، وجذبه الى نفسه حتى ينفصل عنه ، ويلتصق به لمشاكلةٍ طبيعيّة ، وذهاب ذلك بدمالتيس لشدّة المنافرة والمغايرة ، ومثل هذا كثير .

ورأينا بهذا البندر معبداً عظيماً للهنود فيهأصنام من ذهب وفضة مصوّرة على صورة الانسان وصور الحيّات ، وقد صوّر حولها منالصخر المنحوت أصنام كثيرة ، فمنها صور بقر ، وصور رجال ونساء . وهذا المعبد بيت عظيممنحوت كله من الصخر الأسود تقصده كفرة الهنود من الآفاق وتنذر له النذور ؛ ورأيناهميسجدون للأصنام التي فيه ، والسرج فيه ليلاً ونهاراً لا تطفأ ، وله خدم وحجّاب وأتباع .وبجنبه نهر عظيم يخرّ من شاهق في بئر لا يُعلم قرارها وهي ملآنة يمرّ الماء عليها بين جبلين عليهمامن أنواع الأشجار والأزهار ما يجلّ عن الوصف ، ثم ينصب الماء الى البحر . وحكى لنا أهل تلكالبلاد انّ بعض الوزراء أراد أن يعلم عمق هذه البئر التي يمرّ عليها هذا النهر ؛ فأنزل جماعة منالغاصة فلم يخرج منهم أحد ، ولا يعلم ما صاروا اليه ، وكثير من جهلة الهنود يعتقد في هياكلهم هذهالقِدم ، وامّا علماؤهم فيزعمون انّها تقرّبهم الى الله زلفى .

قال المسعودي : كان كثير من أهل الهندوالصين وغيرهم من الطوائف يعتقد أنّ الله عزّ

---

(٤٩٦) في ع (يرونهم) ، وفي ك (يرونها) .

(٤٩٧) هو بختيشوع بن جبريل طبيب معروف :توفي سنة ٢٥٦هـ (عيون الانباء /٢٠١) .

(٤٩٨) البذرقة (بالذال المعجمة او الدال المهملة) :الخفارة ، والمبذرق (بكسر الراء) الخفير .

(٤٩٩) (اذا قيس) كذا ورد في الاصول ، والصواب(اذا قُسّ ، او تُسّس) للمجهول ، من قس الشيء تتبعه وطلبه ؛ والصاد لغة فيه . والقسّ(مثلثة) : تتبع الشيء وطلبه كالتقسّس .

(٥٠٠) الشعرى العبور : كوكب طلوعه في شدّةالحرّ .

وجل جسم ، وأنّ الملائكة أجسام ، وأن الله تعالىوملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك الى أن اتخذوا تماثيل وأصناما على صورة الباري تعالىعن ذلك علواً كبيرا ، وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والأشكال ، ومنهـا على صـورةالانسان ، فعبدوها وقرّبوا لها القرابين ، ونذروا لها النذور تشبها عندهم بالباري تعالى عن ذلك ،فاقاموا على ذلك برهة من الزمـان وجملة من الأعصار ، حتى نبههم بعض حكمـائهم على أنّ الافلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئيّه الى الله تعالى ، وأنّها حيّة لطيفة ، وان الملائـكة تختلففيما بين الله وبينها ، وان كلّ ما يحدث في هـذا العالم فانه على قدر ما تجري به الكواكب عن أمرالله ، فعظّموها وقرّبوا لهـا القرابـين لتشفعهم ، فمكثوا على ذلك دهراً ، فلما راوا الكواكب تخفىبالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهمأن يجعلوا لها أصناماً وتماثيـل بعـدد الكواكب المشهورة • فكلّ صنف منهم يعظم كوكباً منها ،ويقرّب لها نوعاً من القربان خلاف ما للآخر • على انّهم اذا عظّموا ما صوّروا من الأصنام تحركتلهم الأجسام العلوية السبعة بكلّ ما يريدون • وبنوا لكلّ صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً ، وسـمّواتلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب • وقد ذهب قوم الى أنّ البيت الحرام يكون على مرور الدهرمعظّماً في سائر الأعصار لأنه بيت زحل ، وأنّ زحل شأنه البقاء والثبوت ، فما كان له فغير زائل ولاداثر ، وعن التعظيم غـير حائل • وذكروا أموراً اعرضنا عن ذكرهـا لشـناعة أمرهـا • ثم ذكرالمسعودي انحرافهم عن هذا المذهب الى غيره من المذاهب ممّا يطول ذكره •

وبالجملة فان الهنود لهم مذاهب ومعتقداتمختلفة لا يدركها الحصر ، وقد راينا منهم من يعبد النيّرين ، ومنهم من يعبد الأشجار ، ومنهم من يعبدالأنهار ، ومنهم من يعبد الأصنـام • وقد ذكـر الشهرستاني في الملل والنحل جملـة من مذاهبهمقال :

ومن عبدة الأصنام (المهاكلكة ، لهم صنميدعى مهاكال)(٥٠١) له اربعة أيد كثير شعر الرأس سبطه ، وباحدى يديه ثعبان عظيم فاغر" فـاه ،وبالاخرى عصاً ، وبالثالثة رأس ، واليد الرابعة قد رفعها • وفي أذنيه حبّتان كالقرطين وعلى جسدهثعبانان عظيمان قد التفّا عليه ، وعلى رأسه اكليل من عظام القحف ، وعليه من ذلك قلادة • يزعمونانه عفريت يستحق العبادة لعظم قدره ، واستحقاقه الخصال المحمودة المحبوبـة ، والمذمومـة ، منالاعطاء والمنع ، والاحسان والاساءة ، وانه المفزع لهم في حاجاتهم • وله بيوت عظام بأرض الهنـديعتفيها أهل ملته في كلّ يوم ثلاث مرات يسجدون له ويطوفون به • ولهم بموضع آخر صنم يقال لهصنم المعبود ، عظيم على صـورة هذا الصـنم ، يأتونه من كلّ موضع ، ويسـجدون له هناك ،ويطلبون حاجات الدنيا ، حتى ان الرجل يقول له فيما يسأل : زوّجني فلانة ، واعطني كذا ، ومنهممن يأتيه يقيم عنده الأيام والليالي لا يذوق شيئاً يتضرع اليه ويسأله الحاجة ، حتى ربما يتفق هذا •انتهى •

---

(٥٠١) في ك (المهاكلكلة لهم صنم يـدعى مهلكلك)وفي ا (مهنكال ، مكان (مهاكال) .

والهنود أقسام مختلفون، وأصناف متباينون؛لكلّ فرقة مذهب ومعتقد عدا ما للأخرى ، يعرف ذلك من دخل بلادهم وشاهد عباداتهم .

لقد طفتُ في تلكَ المعاهدِ كلّها وسَيَّرتُ طَرفي بين تلكَ المعالمِ[٥٠٢]

فلم أرَ الاّ واضِعاً كفَّ حائرٍ على ذَقَنٍ أو قارِعاً سِنَّ نادِمِ

وذكر جماعة من أرباب التواريخ : انالسلطان محمود بن ناصر الدولة[٥٠٣] لمّا فتح بلاد الهند في سنة عشر وأربعمائة كتب كتاباً الىبغداد يذكر ما فتح الله على يديه من بلاد الهند ، وانه كسر الصنم المشهور بسومنات ، وذكر فيكتابه انّ هذا الصنم عند الهنود يحيي ويميت ويفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ويبرىء ، وربمّاكان يتّفق ـ لشقوتهم ـ برء عليل يقصده فيوافقه طيب الهواء ، وكثرة الحركة فيزيدون به افتتاناً ،ويقصدونه من أقاصي البلاد رجالاً ، وركباناً . ومن لم يصادف منهم انتعاشاً احتجّ بالذنب وقال :انه لم يخلص له الطاعة فلم يستحق منه الاجابة . ويزعمون انّ الأرواح اذا فارقت الأجسام اجتمعتلديه على مذهب أهل التناسخ وينشئها فيمن شاء . وانّ مدّ البحر وجزره عبادة له على قدر طاعته .وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجّونه من كلّ صقع بعيد ، ويأتونه من كلّ فجّ عميق ، ويتحفونهبكلّ مال نفيس . ولم يبق في بلاد الهند والسند ـ على تباعد أقطارها ، وتفاوت أديانها ـ ملك ولاسوقة الاّ وقد تقرّب الى هذا الصنم بما عزّ عليه من أمواله وذخائره ، حتى بلغت أوقافه عشرة آلافقرية في تلك البقاع ، وامتلأت خزائنه من أصناف الأموال . وفي خدمته من البراهمة ألف رجلٍيخدمونه وثلثمائة رجل يحلقون رؤوس حجاجه ولحاهم عند الورود عليه ، وثلثمائة رجلٍوخمسمائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه ، ويجرى من الأوقاف المصدرة له لكل طائفة منهولاء رزق معلوم .

وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيهاالصنم مسيرة شهر في مفازة موصوفة بقلة الماء، وصعوبة المسالك واستيلائهم على طرقها . وساراليها السلطان محمود في ثلاثين ألف فارس سوى الرجّالة والمتطوعة مختاراً لهم من عدد كثير ،وأنفق عليهم من الأموال ما لايحصى ، فلمّا وصلوا الى القلعة وجدوها حصناً منيفاً ففتحوها في ثلاثةأيّام ، ودخلوا بيت الصنم وحوله أصنام الذهب ، والمرصّع بالجواهر عدّة كثيرة محيطة بعرشه ،يزعمون انّها الملائكة . فأحرق المسلمون الصنم فوجدوا في اذنه نيفاً وثلاثين حلقة ، فسألهمالسلطان محمود عن معنى ذلك فقالوا : كل حلقة عبادة ألف سنة ، فكلما عبدوه ألف سنة علّقوا فيأذنه حلقة . وقد ذكر المؤرخون من أخبار هذا الصنم شيئاً اقتصر بعضهم على هذا المقدار وفيهالكفاية .

وأسلم في هذه الوقعة نحو عشرين ألفاً ،وقتل من الكفار نحو خمسين الفاً . وكان السلطان

(٥٠٢) البيتان في وفيات الاعيان ١/٤٢٣ منسوبانلرئيس ابي علي بن سينا (الحسين بن عبدالله) المتوفى سنة ٤٢٨هـ (معجم المؤلفين ٤/٢٠، و ١٢/٣٨٢) .

(٥٠٣) هو السلطان الغزنوي محمود بن سبكتكينالمتوفى سنة ٤٢١هـ (الاعلام ٨/٤٧) .

محمود قد استصفى نواحي الهنـد الى حيث لم تبلغه في الاسـلام راية ، ولم تنل به قطّ آيـة ، ووقائعه وحروبـه مذكورة في تاريـخ أبي نصر العتبي[٥٠٤] الذي ألّفه للسـلطان المذكـور . وسنذكر من أخبار الهند جملاً فيما سـيأتي اذا أفضت النوبة اليه ان شاء الله تعالى .

فائدة : أول من غيّر دين اسماعيل من العرب عمرو بن لحي[٥٠٥] من خزاعة ، فبعثهم على عبادة التماثيل ، وذلك انّه سار الى البلقاء من أعمال دمشق من أرض الشـام فرأى العمالقـة تعبـد الأصنام ، فسـألهم عنها فقالوا : هـذه أربـاب تتخذها . نسـتمطرها فتمطرنـا ؛ ونسـتنصرها فتنصرنا . فطلب منها صنماً فدفعوا اليه هبـل ، فسار به الى مكة فنصبه على الكعبة[٥٠٦] ودعـا الناس الى تعظيمه وعبادتـه ففعـلوا ذلك ، ثمّ استكثروا من الأصنام ، واستبدّت كلّ قبيلة ، وقبيلتين بصـنم ، فكانت لقريش وبني كنانـة العزّى ، وحجّابهـا بنو شـيبة[٥٠٧] . ولثقيف اللاّت وحجابهـا بنو معتب[٥٠٨] ، وكانت منـاة للأوس والخزرج .

قال الواقدي : كان ودّ على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة فرس ، ونسر على صورة حصـان ، ويعوق على صورة فيل . انتهى .

وكان جملة ما حول البيت من الاصنام ثلثمائة وستين صنماً فكسرت كلّها يوم الفتح ، والحمد لله ربّ العالمين .

وعلى ذكر الصنم فما ألطف قول أبي الحسن السري الرفاء في العذار[٥٠٩] .

صنمٌ شُغِفتُ بحبّهِ ... فعذَرْتُ من عَبَدَ الصَّنَمْ
أحببتُهُ فحملتُ عَن ... أجفانِهِ بعضَ السَّقَمْ
شَعَرٌ ألمَّ بعارضَيْـ ... ـهِ فزادَ عاشقَهُ لَمَمْ
والسَّيفُ يَحسُنُ في الحِلى ... والبدرُ يُشرِقُ في الظُّلَمْ
والطِّرسُ أحسَنُ ما يكو ... نُ اذا جرَى فيه القَلَمْ

---

(٥٠٤) هو ابو نصر محمـد بن عبدالجبـار العتبي المتوفى سنة ٤٢٧هـ وقيل غير ذلك (معجم المؤلفين ١٠/١٢٦) .

(٥٠٥) هو عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف ، وفي الحديث عن ابي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : (عرضت عليّ النار فرايت فيها عمرو بن لحي يجرّ قصبه (أمعاءه) في النار ، وهو اوّل من غير دين ابراهيم عليـه السـلام ...) . (جمهرة انساب العرب /٢٣٤ ، واخبار مكة للازرقي ١/١١٦) .

(٥٠٦) في كتاب الاصنام /٢٨ (ان أوّل من نصب هبل : خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ويقال له هبل خزيمة) .

(٥٠٧) (بنو شيبة) كذا ورد في الاصول ، والصواب (بنو شيبان) يراجع الاصنام للكلبي /٢٢ ومعجم البلدان ٣/٦٦٥ واخبار مكة ١/١٢٦ .

(٥٠٨) في كتاب الاصنام /١٦ (وكان سدنة اللات من ثقيف بنو عتاب بن مالك) .

(٥٠٩) لا وجود لهذه الأبيات في ديوان السري .

ومن محاسن شعر السري المذكور قوله من أبيات يدعو بها صديقاً له ومن ديوانه نقلت :

وقد أضاءَتْ نجومٌ مجلسِنا حتّى اكتستْ غُرّةً وأوْضاحا[٥١٠]
لو جَمدَتْ راحُنا اغتدَتْ ذَهَباً أو ذابَ تفّاحُنا اغتدى راحا[٥١١]

فائدة : أرخ ابن خلكان وفاة السري المذكور سنة أربع وأربعين وثلثمائة (ونقل عن الخطيب البغدادي في تاريخه انه قال : في سنة نيف وستين وثلثمائة)[٥١٢] . انتهى .

قلت : وعندي انّ هذين القولين كليهما غير صحيح ، لاني رأيت له في ديوانه مرثية في أبي اسحاق ابراهيم الصابي المشهور يقول فيها[٥١٣] :

ورأيتُ ابراهيمَ مثلَ سَميّهِ صَبْراً غداةَ غَدا الى الاحراقِ

والصابي توفي سنة أربع وثمانين وثلثمائة من غير خلاف فليحرر .

ومما اخترته من شعر السري قوله من قصيدة يمدح بها سيف الدولة :

كِليني الى المهريّةِ القَودِ انّني سآخذُ من أيْدي الخُطوبِ قِيادي[٥١٤]
فما تَعبي الاّ لِتَجديدِ راحَةٍ ولا سَهري إلاّ لِطولِ رُقادِ

ومن شعره الذي تناقلته الركبان قوله :

يَلقى النّدى برَقيقِ وجهٍ مُسفِرٍ فاذا التقى الجَمْعانِ عادَ صَفيقا
رَحبُ المنازلِ ما أقامَ فان سَرى في جَحْفلٍ تركَ الفَضاءَ مَضيقا

رجع : وما زلنا راتعين بين تلك الرياض الوريفة ، مرتبعين من ذلك خصبه وريفه ، والربيع قد خلع على الأرض أثوابه ، وفتح من الأنس للزائر أبوابه ، فتجلّى الروض بوجه وسيم ، وصحّ الهوى واعتلّ النسيم ، والرياض مفتّرة المباسم ، والرياح معطّرة النواسم ، والغصون قدود ، والورد خدود ، والزهر مبلول ، والنهر حسام مسلول .

نهرٌ يَهيمُ بحُسنِهِ مَن لم يَهِمْ ويُجيدُ فيه الشِّعرَ من لم يَشعُرِ
فكأنّه وكأنّ خُضرةَ شَطّهِ سيفٌ يُسَلُّ على بساطٍ أخْضَرِ

وكم من روضة تختال في خلع الغمام ، وترتاح أغصانها الى سجع الحمام ، قد التحفت حللاً محضّرة ، وجعلت نوّارها للبدر غرّة وللشمس طرّة .

---

(٥١٠) في الديوان (حتى اكتسى) .
(٥١١) في الديوان (غدت ذهبا) .
(٥١٢) في ك (وذكر عن غيره سنة ست وستين) .
(٥١٣) لا وجود للقصيدة في ديوان السري الذي بين ايدينا .
(٥١٤) في الديوان (انها) مكان (انني) .

وحَديقـــةٍ مَطلولـــةٍ باكرتُهـا والشمس ترشف ريقَ أزهارِ الرُّبى[٥١٥]
يتكسَّرُ الماءُ الزُّلالُ على الحَصى فاذا غَـدا بينَ الرِّياض تَشَعشَبا

فاستقبلنا العيش في هـذا القطر جديـداً ،وحلَّينا منه للزمان جيداً ، تتبـع اليوم بالأمس ، وتلحق البدر بالشمس ، ونحن في أمان من اخوانالزمان .

لا تبعـدنَّ وانْ طـالَ الغَـرامُ بهـا أيامُ لهـوٍ عَهدْناهـا ولَيْـلاتُ
ما أمكنَتْ دولـةَ الأفـراح مُقبـلةً فانعَمْ ولـذَّ فـانَّ العَيشَ تـاراتُ
قبل ارْتِجاعِ اللَّيـالي كلَّ عاريـةٍ فانَّمـا لـذَّةُ الدُّنيـا إعـاراتُ
خُذ ما تيسَّـر واترُكْ ما وُعِدْتَ به فِعـلَ الأديب وفي التَّـأخير آفـاتُ

هذا ولولا ما يمتنُّ بالبال لتذكرّ الوطن منالبلبال لأنشدت في هذه القرية قول القائل من غير قريـة :

وَجَدْتُ بها ما يَملأ العَـين قـرَّةً ويُسـلي عن الأوْطـانِ كلَّ غَريبِ

ولكن اذا عنَّ التذكار أذكى لواعج الهمومالأفكار (فنباري تلك الحمائم شجوناً ونجاري تلك الغمائم شؤوناً)[٥١٦] :

وحَنيني اذا تَصـدَّى لنَفْـسي صَدَّ لَهوي عن ارتيـادِ ارْتيـاحي
علَّم الوُرقَ حُزنَهـا فهيَ في الأو راقِ تَتْلـوهُ في نَـواح النَّـواحِ
لا يردُّ الجَوى اغتِبـاطٌ اغتِبـاقٍ من حَنيني ولا اصـطِبارٌ اصطِبـاحِ

فتنهَّل غمائم الغموم ، وتهمى سحائب الهوم،وينكدر من العيش ما صـفا ، وأنشـد[٥١٧] (كأن لم يكن بين الحجون الى الصَّفا)[٥١٨] .

وما سـمِعتُ الحَمـام في فَنَنٍ الاَّ وخِلتُ الحِمـامَ فاجـاني
ما اعْتَضتُ مُذ غبتُ عنهُمُ بَـدلاً حاشا وكلاَّ مـا الغَـدرُ من شـاني
كيف سُلوّي أرْضـاً نَعمتُ بهـا أم كيفَ أنسَـى أهْـلي وجِـيراني

وكانت اقامتنا بهذا البندر ثلاثة أشـهر الاَّعشرة أيام ، وذلك مدَّة ذهاب البشير الى الوالد

---

(٥١٥) نسب المؤلف هذين البيتين في كتابه انـوارالربيع ٥٤/٢ الى بدرالدين يوسف الذهبي المتوفى سنة ٦٨٠هـ (الاعلام ٣٢٥/٩) .

(٥١٦) وردت الجملة التي بين القوسـين في (ك)منظومة هكذا :

فنجاري تلك الغمـام شـؤونا ونبـاري تلك الحمـام شـجونا

(٥١٧) في ك ا وانشده واندبه في النشيد) .

(٥١٨) صدر بيت من قصيدة لمضاض بن عمرو بنالحارث ، وتمامة (انيس ولم يسمر بمكة سامر) . القصيدة وترجمة الشاعر في الاغاني ١٢/١٥ ـ ٢٢) .

وعوده . فخرجنا منه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلةبقيت من صفر سنة ثمان وستين وألف . ولا حاجة بنا الى اثبات اسامي المنازل التي أتينـا عليها فيطريقنا هذا لاستعجامها واستبهامها . وما يتعلّق به الغرض نذكره ان شاء الله تعالى .

فسرنا ثلاثة أيام في أرض تباهي زهر السماءبأزهارها ، ومجرّتها بأنهارها ونورها بنَوْرها ، وسحابها برحابها . لا يمتدّ الناظر الاّ الى يانع ناضر ، ولا تقع العين الاّ على نهر وعين .

ذَهَبٌ حيثُمـا ذهَبْنـا ودُرٌّ حيثُ دُرٌّنا وفضّةٌ في الفَضاءِ(٥١٩)

حيث انتهينا الى عقبة يسفّ عن مرتقاهـا العُقاب ، ويخفّ عند ارتقاء ذراها أشدّ العِقاب. لا مطمع لراق فيها الاّ على قدمه ، ولو أفضى الىإراقة دمه . فأنخنا تحتها ليلة ، وكلٌّ قد شـمّر لصعودها ذيله ، فما انجاب الليل الاّ وارتقيناهاكانحدار السيل ، فاقتعدنا مع الشـمس ذروتها ، وامتطينا صهوتها ، ورأينا فيها من سـيول الماء ،وعيون موادهـا غيوث السـماء ، ما لا انصبابها دويّ كالرعد القاصف ، أو الرياح العواصف ،وشاهدنا منها ما يخالف العادات ، وتفتقر رواتـه الى الشهادات . فان نفس قلّتها أرض متسـاويةالطول والعرض تمتد الى جميع تلك الأقطار ، ولا يحتاج معها الى هبوط وانحدار . فسبحان المتفرّدبالاقتدار . وكانت هذه البقعـة منقطع أعمـال (كوكن) ومبتدأ أعمال (الدكن) . فالفينا الربيعقد قشع عن هذا القطر سحابه ، والشتاء عمّ شعابه ورحابه . فسرنا وقد أرجف بأن المسالك شاغرة ،وأمراء هذا المُلك متشاجرة ، وذلك لموت ملكهم وقيام ابنه مقامه ، فاستحوذ كلّ على ما تحت يده،واستبدّ بعدّته وعـدده ، فاسـتقبلوا ادبـاراً « وأصرّو واستكبروا اسـتكباراً »(٥٢٠) . ولمنزل نبتّ العيون في تلك الأقطار لتجنب مقاحم الأخطار ، وان كان معنا من العسكر عدد ، الاّ انّهلا يفي للقيام الى أمير يدعي الملك بمدد .

ورأينا في بعض المنازل فيلاً لبعض العمالولم نكن نراه قبل ذلك ، فعجبنا من عجيب خلقته ، وغريب صورته ، وعظيم جثته ، فسبحان مبـدع العالم باقتداره ، ومدبر الأشـياء على مشـيئته واختياره . والعرب تكني الفيل أبا الحجاج ، وأبامزاحم ، وأبا الحرمان ، والفيلة : أمّ شبل . قال بعضهم ملغزاً فيه :

ما اسـمُ شـيءٍ تركيبُه من ثـلاثٍ هو ذُو أربَعٍ تعـالى الإلـهُ(٥٢١)
قِيـلَ تصـحيفُه ولـكن اذا مـا عكسُـوهُ يصـيرُ لي ثُلثـاهُ(٥٢٢)

قال المسعودي : وتزعم الهنود انّ كلّ ذيلسان فاصل لسانه الى داخل وطرفه الى خارج ،

---

(٥١٩) ورد البيت في رسالة لعبدالصمد بن عليالطبري من شعراء دمية القصر للباخرزي . تراجع الدمية (طبعة حلب) ص/٢١٣ ــ ٢١٥) .

(٥٢٠) سورة نوح /٧ .

(٥٢١) في ك (أيّ شيء) .

(٥٢٢) (قيل) تصحيف (فيل) ، وثلثا كلمة فيلالمعكوسة (لي) .

الا الفيل فان طرف لسانه الى داخل وأصله الى خارج . قالوا : ولولا ان لسانه مقلوب ثم لقن الكلام لتكلم . والهند تشرفه وتفضله على سائرالحيوانات لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة ، من علو سمكه ، وعظم جثته ، وبديع منظره ،وطول خرطومه ، وسعة أذنه ، وطول عمره ، وثقل جسمه ، وخفة وطئه ، وقلة اكتراثه لما يوضع على ظهره . وانه مع كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة يمر بالانسان فلا يحس بوطئه ، ولا يشعر به حتى يغشاه لحسن خطوه واستقامة مشيه . وهو اذا اغتلم كثر شره وصعبت رياضته ، وربما قتل كل من يلقاه في حال اغتلامه . وفيه من الفهم ما يقبل التأديب ، ويفعل ما يأمره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالتي السلم والحرب . وهو ذو حقد شديد ،ربما تعرض لمن سبه في وجهه .

قلت : ولقد اخبرني شخص ان فيلا صغيراً وقف على دكان خياط وعبث به فغرز الخياط الابرة في خرطومه ، فتركه ومضى ثم عاد اليه وقد ملأ خرطومه وحلا فنفخ به في دكان الخياط ، فأتلف عليه ما أصاب من الثياب ، وهذا من غريب ما يحكى عن فهمه وفطنته وشدة حقده(٥٢٣) . وحكى أرسطو : ان فيلا ظهر ان عمره أربعمائة سنة ، واعتبر ذلك بالوسم . واذا دخلت البعوضة اذن الفيل قتلته ، فهو لم يزل يذب عن اذنه ليلا ونهاراً . وما أحسن قول أبي الفتح البستي(*) :

لا يستخفن الفتى بعداوة ... أبداً وان كان العدو ضئيلا(٥٢٤)

ان القذى يؤذي العيون قليله ... وربما قتل البعوض الفيلا(٥٢٥)

ومن العجيب أن الفيل مع هذه الأوصاف التي تقلناها قليل الجري جداً يسبقه الانسان اذا سابقه ، ولا أشك في كون الحكاية التي ذكرها أبو نعيم في الحلية ـ في ترجمة أبي عبدالله القلانسي ـ موضوعة ، حيث قال فيها : ان الفيلة سارت به في ليلة مسيرة ثمانية أيام . ولا يصح ذلك البتة(٥٢٦) . وقد ذكر من لم ير الفيل في حليته أوصافاً أكثرها غير صحيح .

منها : ان خرطومه مصمت ، وليس كذلك ،فانه مجوف الا انه لا ينفذ وانما هو وعاء اذا ملأه من طعام أو شراب أولجه في فمه ، لانه قصير العنق لا ينال ماء ولا مرعى .

ومنها ان صياحه ليس على مقدار جثته ، لانه كصياح الصبي ، والحال ان صوته هائل قريب من رغاء البعير ، الا انه أمد منه صوتاً .

---

(٥٢٣) رأيت فيلاً ضخماً ـ في حديقة للحيوانات بطهران ـ يروح ويجيء ضمن دائرة ليست بالكبيرة وبالقرب منه حفرة فيها ماء قذر . وكان الى جنبي رجل ايراني كهل حسن الهيئة فوكز الفيل في مؤخره بعصا مدببة كانت بيده فلم يلتفت الفيل ، ولكنه غمس خرطومه بذلك الماء . ولما عاد متجهاً الينا رفع خرطومه وافرغ ما فيه على صاحب العصا فغمره بالوحل من قمة راسه الى قدميه .

(٥٢٤) في يتيمة الدهر ٤/٢٣٣ (بعدوه) مكان (بعداوة) .

(٥٢٥) في يتيمة الدهر (جرح البعوض) .

(٥٢٦) براجع حلية الاولياء ١٠/١٦٠ .